من روائع الأدب الفرنسي

20 قصة قصيرة
تُنشر لأول مرة

obeikandl.com

أشرف عليها وأعدّها للنشر
محمد حامد

دار المصري الأدبي

obeikandl.com

مقدمة

الأدب الفرنسي من أثرى آداب الأمم؛ إذ يتضمن أعمالاً رائعة في الشعر الغنائي، والمسرحية والقصة والرواية وغيرها. وهو أيضا من أكثر الآداب تأثيرًا، فالحركات الأدبية والفكرية الفرنسية، مثل الكلاسيكية والواقعية والرمزية، ألهمت أعمال كثير من كُتاب بريطانيا وباقي أوروبا والولايات المتحدة.

ويعطي معظم الأدباء الفرنسيين أهمية كبرى للشكل واللغة والأسلوب والتراث، كما يتقيدون أكثر من غيرهم بالقواعد والنماذج. وتعتبر العقلانية عنصرًا أساسيًا في أعمالهم، فهم يعتبرون أن العقل هو القوة التي تتحكم في السلوك البشري. ولكن ذلك لا يمنع وجود نزعة تجريبية قوية تستخدم أشكالاً أدبية غير تقليدية.

<u>بدايات الأدب الفرنسي</u>

بدأ الأدب الفرنسي في القرن التاسع الميلادي، خلال العصور الوسطى. وكان الشعر يطغى عليه. وبالتدريج برز نوعان من الشعر: أولهما: الشعر الغنائي الذي ازدهر بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين، والثاني هو: الشعر القصصي الذي يشتمل على أربعة أنماط مهمة، منها القصائد الملحمية، التي تسرد حكايات عن الحروب والأعمال البطولية، وأشهرها أغنية رولان في القرن الثاني عشر الميلادي. ومن الأنماط الأخرى القصة الخيالية والرومانسية. وهي حكاية طويلة تمتلئ غالبًا بالمغامرات الخيالية. ومن أشهر ما كُتب فيها قصة الوردة، التي ألفها غيوم دو لوري وجان دو مون في القرن الثالث عشر الميلادي. والنمطان الآخران هما الحكاية الشعرية القصيرة والقصة الخرافية.

كما كتبت بعض القصص الخيالية الرومانسية نثرًا. وكانت المسرحية في أول ظهورها شعرية دينية، ومن أنواعها: المسرحية الدينية ومسرحية المعجزات والمسرحية الأخلاقية.

عصر النهضة

وهو يغطي القرن السادس عشر الميلادي بأكمله تقريبًا في فرنسا. وقد ازدهر فيه العلم والمعرفة بتأثير من الأدب الإيطالي والنماذج الإغريقية والرومانية القديمة. ويعرف كُتاب وعلماء هذا العصر باسم الإنسانيين.

يعتبر فرانسوا رابيليه أهم الكُتَّاب الروائيين في هذا العصر، وأهم أعماله: جارجنتوا وبَنْتَجرول.

أما في الشعر، فقد برزت مجموعة من سبعة شعراء عُرفوا باسم نجوم الثرَيا وتزعمهم بيير دو رونسار.

وكان آخر كُتَّاب عصر النهضة الكبار ميشيل دو مونتانه، الذي ابتدع المقالة الشخصية، وأضافها إلى الأشكال الأدبية المعروفة.

العصر الكلاسيكي

الشعر الكلاسيكي. كان فرانسوا دو ماليرب أول شاعر كلاسيكي له أهميته، كما كان أكثر الشعراء نفوذًا في هذا الباب. وفي أوائل القرن السابع عشر الميلادي كان ماليرب يكتب شعرًا يتصف بالوضوح والمعقولية واليقظة، وأصبحت هذه الصفات هي المميزات والأسلوب الأساسي للشعر الكلاسيكي. كذلك فقد كان كل من جان دي لا فونتين وديسبرو نيقولا بوالو من أبرز الشخصيات القيادية بوصفهم شعراء كلاسيكيين. وكتب لافونتين مجموعة مشهورة من قصص الحيوان شعرًا، وأطلق عليها اسم الخرافات وذلك في الفترة بين عامي 1668 و1694م. وكتب بوالو كتابًا بعنوان فن الشعر (1674م). وفي هذا الكتاب الذي أُلِّف في نقد الشعر وصف المؤلف الأسس الأدبية الخاصة بالاعتدال ونبل الأسلوب وهي الصفات التي تحلى بها الشعر الكلاسيكي في الفترة التي كتب فيها.

المسرحية الكلاسيكية

برزت المسرحية الكلاسيكية بوصفها أحسن تعبير للكلاسيكية الفرنسية. وكان أساتذة المسرحية الكلاسيكية هم بيير كورني، وجان راسين، وموليير.

وكان كورنيّ أول كاتب كلاسيكي مشهور للمأساة. ونجد أن مسرحياته تقدم لنا شخصيات نبيلة قد تورطت في نزاعات مع الواجب، والولاء والحب. وكان كورني يهتم بنوع خاص بأهمية العزيمة، والسيطرة على النفس، والشرف، والحرية. ومن بين مؤلفاته المأساوية التي كتبها السّيد (1636 أو 1637م)؛ هوراس (1640م)؛ بولي يوكْتْ (1642م).

أما راسين فقد كان أشهر كتّاب المأساة الكلاسيكية. وتظهر مسرحياته شخصيات في قبضة عواطف لا يستطيعون السيطرة عليها. وتغلب على أعماله مسحة التشاؤم الدينية التي تصبغ مؤلفاته. واستطاع راسين أن يطوّع الموضوعات الإغريقية والرومانية العتيقة في بعض أعماله الممتازة مثل أندروماك (1667م)؛ رفيدْر (1677م).

وعُرف موليير بأنه أشهر كتاب الملهاة في المسرحية الفرنسية. وكانت أشهر مسرحياته تتسم بالسخرية، وتظهر شخصيات قوية في نزاع مع التقاليد الاجتماعية. وألّف موليير أشهر مسرحياته الهزلية نحو عام 1665م. وكان من بين تلك المسرحيات الهزلية طرطوف؛ دون جوان؛ مبغض الشر.

النثر الكلاسيكي

هناك فيلسوفان كتبا أعمالاً تعتبر من عيون المؤلفات الفرنسية في النثر الكلاسيكي. فقد كتب رينيه ديكارت حديث عن الطريقة (1637م)، وكان هذا الكتاب نموذجًا للتفكير العقلي له تأثيره الكبير. وكتب بليس باسكال أعمالاً نثرية تكشف عن عقيدته النصرانية العميقة. وأوسع أعمال باسكال الدينية انتشارًا هي مجموعة الأفكار المعروفة بعنوان: بنزيس. وقد نُشرت هذه المجموعة لأول مرة عام 1670م، إلا أن المجموعة الكاملة لم تنشر

بأكملها إلا عام 1844م.

ظهرت جماعة من الكتاب تُدْعى بالأخلاقيين، وكانت هذه الجماعة تصف الأخلاق الإنسانية والسلوك في رسائل وأقوال سميت بالمبادئ الأساسية وغير ذلك من صيغ النثر الأخرى، ويعتبر الكتاب الساخر: شخصيات ثيوفراتسْ (1688م) الذي ألفه جان لا بروبير نموذجًا للأدب الأخلاقي، فهو يضم مبادئ الناس الأساسية بالصور الأدبية والأنواع الاجتماعية في ذلك العهد.

وكتبت مدام لا فاييت واحدة من أولى الروايات المهمة في الأدب الفرنسي، وكانت بعنوان أميرة كليفز (1678م). وقد لقيت هذه الرواية ثناءً على ما احتوت من تحليل نفسي ومعالجة تتّسم بالمهارة.

كان جاك بوسيه مؤرخًا وراهبًا من رهبان الروم الكاثوليك، وقد عُرف بصلواته التي كان يعقدها والتي برع في تقديمها بطريقة تحرك المشاعر. وكان فرانسوا دو فينيلون من كبار الأساقفة الكاثوليك. وكانت شهرته الأدبية تعتمد أساسًا على روايته العاطفية تيلماشو (1699م)، وكانت قصة عاطفية مليئة بأفكار المؤلف عن التعليم والأخلاق والسياسة والدين.

عصر العقل

يطلق في فرنسا على القرن الثامن عشر الميلادي، عصر العقل أو عصر التنوير. ففي خلال هذا القرن صب الفلاسفة كبير اهتمامهم على العقل على أنه أحسن الطرق لمعرفة الحقيقة وكان معظم الأدب فلسفيًا يخرجه مفكرون كبار من أمثال فولتير، ودينيس ديدرو، وجان جاك روسو. انظر: عصر العقل.

وكان فولتير أشهر رجال الأدب في عصره. وكان يستخدم مهاراته الأدبية لمحاربة الاستبداد والتعصب الأعمى، والترويج للعقلانية. وكانت أكثر أعماله شهرة هي روايته الساخرة بعنوان كانديد (1759م). كذلك فقد كتب فولتير بعض المآسي التي كانت إلى حد ما واقعة تحت تأثير مسرحيات وليم شكسبير. وبالإضافة إلى هذا فإن فولتير قد ساعد في تطوير مبادئ الكتابة التاريخية الحديثة

من خلال أعماله الكثيرة التي تناول فيها تاريخ أوروبا والعالم.

ويعرف دينيس ديدرو إلى حدٍ كبير لكونه محررًا للموسوعة (1751 - 1772م)، وهي من الإنجازات العلمية لعصر العقل. وكانت الموسوعة هذه مجموعة من المقالات العلمية المتعمقة أسهم بها كُتَّاب في مختلف التخصصات، ومنهم فولتير، مونتسكيو، جان جاك روسو. وكان هذا العمل يهدف إلى أن توضح بطريقة عقلية آخر الاكتشافات العلمية. كذلك فإن المحرر هاجم السلطات الدينية، وعدم المساواة الاقتصادية وسوء استغلال العدالة.

واقترح جان جاك روسو تغييرات في المجتمع الفرنسي في روايته إلوازا الجديدة (1761م)، وفي التعليم في روايته إميل (1762م). وساعدت سيرة حياة روسو بعنوان: اعترافات التي نشرت عامي 1782 و1789م بعد مماته على بيان دور الأدب الحديث في مجال النقد الذاتي. وكانت حساسية روسو نحو الطبيعة قد أعادت إدخال مشاعر من التفكير العميق والشعر في الأدب الفرنسي. وتظهر هذه الحساسية بوضوح أكبر في أحلام اليقظة للمتجول الوحيد (1782م).

وهناك عدد آخر من الكتاب أسهموا في عصر العقل، فقد كتب مونتسكيو نقدًا اجتماعيًا ساخرًا في رسائله الفارسية (1721م). وألف ألين رينيه ليساج رواية ساخرة مشهورة بعنوان جيلْ بْلاسْ (1715 - 1735م). وألف الأب بريفو رواية عاطفية محببة إلى النفوس بعنوان مانون لسكوت (1731م). وكتب بيير ماريفو روايات عن الطبقة الوسطى، كما كتب بعض الهزليات اللطيفة عن مشكلات الحب كما تراها النساء. وكتب بيير بو مارشيه بعض الهزليات الساخرة مثل: حلاق أشبيلية (1775م)؛ زواج فيجارُو (1784م). وكلتا الروايتين تعالج طبيعة الامتيازات الأرستقراطية غير المعقولة وأسهمتا في الأفكار التي أدَّت إلى تكوين وعي اجتماعي بضرورة الإصلاح، ثم في اندلاع الثورة الفرنسية (1789 - 1799م).

الرومانسية

الرومانسية حركة نبتت جذورها في أواخر القرن الثامن عشر

الميلادي، ثم ازدهرت خلال أوائل القرن التاسع عشر ومنتصفه. وكانت الرومانسية إلى حد ما رد فعل ضد الكلاسيكية وعصر العقل. وكان الكتاب الرومانسيون يرفضون ما اعتبروا أنه العقلانية المفرطة والشكل الأدبي الذي فقد الحياة . ذلك الأدب الذي انتشر في الفترات السابقة. وكان الرومانسيون يؤكِّدون إبراز العواطف والخيال ليتغلبوا على العقل، كما أنهم ابتكروا صيغًا من حرية التعبير الأدبي أكثر حرية من غيرها. وكان الكتاب الرومانسيون منطوين على أنفسهم إلى حد بعيد إذ كانت شخصية الكاتب في أغلب الأحيان أهم عنصر في أي عمل أدبي.

ما قبل الرومانسيين. كانت الرومانسية الفرنسية قد وقعت تحت تأثير حركة رومانسية سبقتها في إنجلترا وألمانيا وأسبانيا. وكان هناك عدد من الكتاب الفرنسيين الذين أُطلق عليهم الرومانسيون المتقدمون وقد ساعد هؤلاء في صياغة الحركة خلال أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين.

ويعتبر جان جاك روسو من كتاب عصر العقل. غير أنه أيضًا من السابقين المهمين لعصر الحركة الرومانسية لأنه كان يفضل العاطفة على العقل، والعفوية على ضبط النفس. كذلك أثر روسو في الرومانسيين بأسلوبه النثري الغنائي، وإدخاله الحب الجياش في الرواية الفرنسية، وإحساسه بجمال الطبيعة.

وكان لفرانسوا رينيه دوشاتوبريان تأثير قوي من خلال قصصه، وكانت مشاعر الملل والوحدة والحزن التي تسيطر على كتاباته قد أصبحت عناصر ضرورية للأدب الرومانسي.

وابتكر شاتوبريان شخصية أساسية في الكتابة الرومانسية تلك هي شخصية البطل العاطفي الذي لا يجد من الناس من يفهمه والذي لا يجد له أنيسًا في وحدته. وكانت لشاتوبريان مشاعر دينية قوية، وقد ساعدت أعماله على إحياء الاهتمام بالعصور الوسطى النصرانية، وهي فترة كان يسخر منها الكتاب الكلاسيكيون وكتاب عصر العقل.

وقد خلفت مدام دي ستايل أثرها الكبير على نظرية النقد

الرومانسي الفرنسي حين أصدرت كتابها عن الأدب وذلك عام 1800م. وقد أدخلت الرومانسية الألمانية إلى فرنسا عندما كتبت كتابها عن ألمانيا (1810م). أما الشاعر أندريه شينيير فإنه أدخل عددًا من العناصر الفنية في شعره، ثم أخذها عنه الشعراء الرومانسيون وطبقوها في أعمالهم.

القصة الرومانسية

كتب كثير من المؤلفين الرومانسيين روايات تاريخية على غرار ما فعله الكاتب الأسكتلندي السير وولتر سكوت. وكتب ألكسندر دوماس (الأب) الرواية التاريخية المشهورة الفرسان الثلاثة (1844م) التي وقعت حوادثها خلال فترة حكم الملك لويس الثالث عشر وذلك في القرن السابع عشر الميلادي. وأظهرت رواية فيكتور هوجو أحدب نوتردام (1831م) الذوق الرومانسي المتعطش للقرون الوسطى.

واندفع بعض الكُتَّاب الرومانسيين نحو أسلوب آخر في القصص يميل إلى الواقعية. وينضوي في قائمة هؤلاء المؤلفين كل من أونوريه دو بلزاك، وجورج ساند، وستندال الذين احتفظوا بكثير من الخصائص الرومانسية في أعمالهم. ولكنهم عدلوا عن رومانسيتهم ونظروا للحياة بواقعية أكثر.

بدأ بلزاك الكتابة عام 1829م، ومنذ ذلك التاريخ كتب ما يقرب من مائة رواية وقصة جُمِعَت فيما بعد تحت عنوان الكوميديا الإنسانية (1842 - 1848م). وفي هذه السلسلة حاول المؤلف أن يصف المجتمع الفرنسي المعاصر بأكمله. وصور بلزاك أنواعًا شتى من الناس، كما صور أهدافهم وتفاعلاتهم. كما غاص ليكتشف تأثير المؤسسات الاجتماعية وقيمها وخاصة اتجاهات المجتمع نحو المال.

وكانت الكاتبة الفرنسية أمانتين أروري، واسمها المستعار جورج ساند، قد بدأت حياتها الأدبية بكتابة روايات عن الحب والعواطف الجياشة مثل إنديانا (1832)؛ ليليا (1833م)، ثم التفتت فيما بعد إلى الموضوعات الريفية، خاصة في روايتها التي

كانت تعالج حياة الريف وهي البركة المعمورة (1846م). انظر: ساند، جورج.

وكان ستندال عقلانيًا، ولكنه كان يحب الشخصيات العاطفية القوية، والمواقف الدرامية المثيرة. ولما كان ستندال متعمقًا في علم النفس فإنه استعمل أسلوبًا واضحًا ساخرًا ليصور النضال بين العاطفة والطموح المدروس المدبَّر. وكانت أفضل أعماله الأحمر والأزرق (1830م ؛ تشارترهاوس بارما (1839م).

الواقعية

الواقعية فكرة أدبية انبثقت إلى حدٍّ ما رد فعل ضد الرومانسية. وكان الواقعيون يعتقدون بأن الفن يجب أن يصور الحياة بطريقة صحيحة ومضبوطة وأمينة وموضوعية. وعندما حلّ منتصف القرن التاسع عشر كانت الواقعية قد سيطرت على الأدب الفرنسي. انظر: الواقعية.

كان جوستاف فلوبير الممثل الرئيسي للواقعية الفرنسية. وتبعه بلزاك في حبه للتفاصيل وملاحظته الدقيقة للحقائق. ففي روايته مدام بوفاري (1857م)، اختار فلوبير عن قصد موضوعًا عاديًا . طبيبًا ثقيل الظل يعمل في الريف ومعه زوجته الساذجة . لتصوير الحياة الريفية الفرنسية.

وعرف جاي دي موباسان بقصصه القصيرة الواقعية. وقد كان موباسان خبيرًا في مراقبة السلوك الإنساني. ونجد أن كثيرًا من قصصه تصور الحياة الريفية في نورمنديا أو الوجود الممل لصغاررجال الخدمة المدنية في باريس.

كان هناك نوعان رئيسيان للمسرحية الواقعية في فرنسا. وكانت إحداهما هي المسرحية الجيدة الصنعة التي كانت تؤكد الحبكة القصصية أو العقدة والترقب. وفي هذا المجال فإن هزليات يوجين سكرايب هي خير مثال لذلك. أما النوع الآخر فهو مسرحية المشكلة أو الرسالة. وكان معظمها يعالج المشكلات الاجتماعية مثل الطلاق والظلم القانوني. وكان أعظم كتَّاب مسرحيات المشْكلات هم إميل أوجيه، ويوجيني بريو، وألكسندر دوماس (الابن).

أدى النقد الأدبي دورًا بارزًا في الأدب الواقعي، وكان له تأثير كبير فيما بعد على النقد الأدبي، وكان في مقدمة كتَّاب الأدب الواقعي شارل سانت بوف. وكان يعتقد بأن العمل الأدبي يجب أن يدرس من خلال حياة المؤلف وشخصيته. كذلك فإنه كان يضع شيئًا من الأهمية على البيئة الاجتماعية والخلفية التاريخية التي حدث فيها ذلك العمل الأدبي.

المدرسة الطبيعية

ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي حركة عرفت باسم المدرسة الطبيعية، وكانت هذه الحركة نوعًا متطرفًا من الواقعية. ويرى الكُتَّاب الطبيعيون أن العمل الطبيعي الأصيل متشائم وكثيرًا ما ينتقد الظلم الاجتماعي. وكانت الحركة تتبع فلسفة عُرفت باسم التحديد.

كان أميل زولا زعيم الكتّاب الطبيعيين الفرنسيين. وقد اقترح أن تعالج القصة باعتبارها مختبرًا يمكن الكشف فيه عن قوانين السلوك الإنساني. وكان أميل قد ابتكر روائع الوصف والنقد الاجتماعي في سلسلته المكونة من 20 رواية تحت اسم روجون . ماكار (1871 - 1893م). وقد سميت الروايات باسم الأسرة التي كانت تحتل مركزًا مهمًا في تلك القصص.

وتعاون كل من الأخوين إدموند وجولز دو كونكور على كتابة جرميني لاسيرتو (1864م)، وهي رواية كئيبة عن فتاة خادمة غاصت في حياة الرذيلة. ولكن هذين الأخوين عرفا أكثر بسبب مؤلفهما جورنال الذي سجلا فيه الحياة الأدبية والاجتماعية في باريس في الفترة مابين عامي 1851 و1896م.

أما هنري بيك فكان أشهر كتاب المسرحيات الطبيعية. وكانت روايته النسور (1882م) اكتشافًا مريرًا للخلق الإنساني القاسي.

ولم يتوقف دور هيبوليت أدولف تين عند حدود النقد الأدبي، بل كان أيضًا في مقدمة أولئك الكتّاب. وكان تين قد وضع رؤيا أدبية يمكن تلخيصها في: العنصر الإنساني، والبيئة، واللحظة. أما العنصر الإنساني فإنه يشير إلى وراثة المؤلف، وأما البيئة فإنها

بيئة المؤلف، وأما اللحظة فإنها تمثل حالة التقاليد الفنية التي عمل فيها المؤلف. ووفقًا لنظرية تين فإن هذه العوامل الثلاثة تحكم الإبداع الأدبي.

الرمزية

كانت الرمزية الفرنسية حركة أدبية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. واستعمل هذا المصطلح أيضًا للدلالة على عدد من الكتاب الفرنسيين الذين لا ينتمون إلى هذه الحركة بعينها.

وكان أهم شخصيات الحركة الرمزية هم الشعراء شارل بودلير، وستيفان ملارميه، وبول فيرلين، وآرثر رامبو. وكان هؤلاء يريدون أن يحرروا تقنيات الشعر من الأساليب التقليدية لإيجاد تراكيب من الشعر تتمتع بحرية أكبر. وكان هؤلاء الرمزيون يرون أن الشعر يجب أن يأتي بمعانٍ جديدة من خلال الانطباعات والإيحاءات والمشاعر بدلاً من وصف حقائق موضوعية. ويلاحظ أن كثيرًا من شعر هؤلاء الرمزيين شخصي يكتنفه الغموض.

كان شارل بودلير هو السابق للرمزية. وكان ديوانه أزهار الشر (1875م) مجموعة من نحو 100 قصيدة. ويعكس هذا الانتاج الأدبي رؤيا بودلير الكئيبة عن الإنسانية وشرورها. ولكنه قال مع ذلك بأن للإنسانية قدرتها على إبداع الجمال الشعري.

أما ستيفان ملارميه فقد كان أول شاعر رمزي مشهور. وكان يأمل في أن تتمكن اللغة الشعرية من بلوغ الحقيقة المطلقة. وهناك صعوبة في فهم أعماله الأدبية بسبب تراكيبها غير العادية وكلماتها العلمية المحضة واستعاراته الفضفاضة ومادة موضوعاته المعنوية. وتعتبر قصيدة بعد ظهر فون (1876م)، أحد آلهة الحقول والقطعان في الأساطير الرومانية القديمة؛ أكثر قصائده الشعرية شهرة.

ألف بول فيرلين شعرًا غنائيًا لطيفًا أنيقًا موسيقيًا. وقد حاول في ديوانه أغان بلا كلمات (1874م) أن يصوّر إحساسًا بالموسيقى في شعره.

وكان آرثر رامبو صبيًا عبقريًا، نظم شعرًا غاية في الأصالة وهو في السادسة عشر من عمره. وعندما بلغ التاسعة عشر ألف رامبو موسم في الجحيم (1873م) وكان هذا العمل مجموعة من النثر والشعر تتناول سيرته الذاتية، وكانت تصف تجاربه النفسية المعذبة.

لم يكن هناك من الروائيين أو كتاب المسرحيات من يضارع الشعراء. مع ذلك، فإن المسرحيات الرمزية الحالمة التي ألفها موريس ميترلينك قد جذبت بعض الانتباه. وكان ميترلينك مؤلفًا بلجيكيًا، ولكنه كان يكتب باللغة الفرنسية.

القرن العشرون

في خلال السنوات الأولى من القرن العشرين سيطر أربعة من المؤلفين على الأدب الفرنسي. وكان هؤلاء هم بول كلوديل، وأندريه جيد، وبول فاليري، ومارسيل بروست. وقد وُلِد كل هؤلاء حوالي عام 1870م، كما أنهم جميعًا مروا بمرحلة الرمزية في حياتهم الأدبية الأولى. وعندما حل عام 1920م كان كل منهم قد اعترف به أستاذ للأدب الفرنسي.

كتب كلوديل في المسرحية والشعر والنقد والتعليقات الدينية، تلك التعليقات التي عكست معتقداته الكاثوليكية القوية. وقد امتلأ شعر كلوديل بالاستعارات الجسورة والعواطف العنيفة والمحسّنات اللغوية. إلا أن أحسن أعماله الأدبية هي مسرحياته الدينية وخاصة تحطيم القمر التي كتبها عام (1906م)؛ والأنباء التي حُملت إلى ماري (1912م).

أما جِيدْ فقد كان الروائي الذي كثر حوله الجدل بسبب أفكاره المتطرفة عن الدين والأخلاق. وكانت قصص جيد قد وجدت ثناءً واستحسانًا لأسلوبها وعمقها في علم النفس وهي تسبر أغوار النفوس عند إبراز شخصياتها. وفي عام 1909م ساعد في تأسيس مجلة المراجعة الفرنسية الجديدة وهي من أشهر المجلات الأدبية الفرنسية التي ظهرت في أوائل القرن العشرين الميلادي.

وربما كان بروست هو أشهر الروائيين الفرنسيين منذ ظهور

بلزاك، وكانت روايته التي تتعلق بسيرة حياته الذاتية قد ظهرت بعنوان ذكريات أشياء غابرة وقد نشرت في سبعة أجزاء بدءًا من عام 1913 وحتى عام 1927م. والرواية في حد ذاتها عمل شعري ذاتي للغاية، إضافة إلى أنه دراسة لمَّاحة للأخلاق الاجتماعية وسيكولوجية الشخصية.

ونظم فاليري شعرًا يظهر تأثير التقاليد العقلانية في الأدب الفرنسي. وكان يؤكّد وجوب كبح العاطفة والصيغ الكلاسيكية في شعره. ومن بين أعماله المهمة قصيدته الطويلة القَدَر الصغير (1917م) والقصائد العاطفية التي جمعت في الرُّقى (1922م). وكان فاليري مع ذلك من أبرز نقاد الأدب.

السّريالية

السريالية حركة أسستها جماعة من الكتّاب والفنانين في باريس عام 1924م. وكانت هذه الحركة تريد أن تحدث ثورة في المجتمع. وكان أعضاؤها يستكشفون عمليات الفكر اللاواعي وخاصة الأحلام التي كانوا يعتقدون بأنها ستثمر الحقيقة في النهاية. انظر: السريالية. وكان الشاعر غييوم أبولينيير مؤثرا رئيسيًا في السريالية. وكان ديوانه الكولز (1913م) مجموعة من القصائد العاطفية الجميلة التي رفعت من شأن الخيال. وكان أندريه بريتون صاحب النظريات الرئيسي وقائد السرياليين. وكان أبرز الشعراء هم رينيه شار، وبول بولارد، ولويس أراجون. ورغم كل هذا فإن ثلاثتهم قد نظموا أحسن أشعارهم بعد أن تركوا الحركة في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين. وكانت أهم موضوعاتهم التي طرقوها هي الحب والوطنية.

الوجودية. الوجودية فلسفة أثرت تأثيرًا قويًا في الأدب الفرنسي بعد الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م). وأصبح جان بول سارتر الكاتب الوجودي الأول، مشهورًا لتأليفه بعض المسرحيات مثل: لا مخرج (1944م)، و أيد قذرة (1948م) إضافة إلى بعض الكتابات الأخرى في الفلسفة والنقد. وقد عنيت كتاباته بالموضوعات الأخلاقية والسياسية خاصة مشكلات الحرية

والالتزام. واستطاعت سيمون دوبوفوار أن تحبب الأفكار الوجودية في أعمالها الأدبية مثل من أجل أخلاقيات الغموض (1947م). ولم يكن ألبير كامو وجوديًا بالمعنى الدقيق، ولكنه كان مثل سارتر في أنه أخذ يستكشف المشكلات الأخلاقية في عدة أعمال أدبية بما في ذلك الروايات التي ألفها وهي: الغريب (1942م)؛ الطاعون (1947م)، وفي مقالته الطويلة أسطورة سيزيف (1942م).

المسرحية الفرنسية في أواسط القرن العشرين. أسهم عدد من الروائيين والشعراء الفرنسيين في تأليف مسرحيات فرنسية في أواسط القرن العشرين بما في ذلك سارتر وكامو. وكان من بين كتاب المسرحيات البارزين جان أنوي، وجان جيرودو، وجان كوكتو. وأخذ أنوي في الكشف عن الخداع والحقيقة، والفرد ضد المجتمع، وطبيعة الواجب. وكان كثيرًا ما يعمد إلى استخدام بعض الموضوعات الأسطورية والتاريخية في كتاباته. وكانت كتابات جيرودو فضفاضة ساخرة وبأسلوب يتسم بالصنعة. وكانت أهم مسرحياته المعروفة تبحث في طبيعة الحب أو تحتج على الحروب والطمع. وعرف كوكتو بمواضيعه الجامحة الخيال، والأسطورية.

الأدب الفرنسي الحديث

منذ الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين أضحى هناك تطوران رئيسيان في الأدب الفرنسي. أما التطوّر الأول فكان في ظهور مسرح اللامعقول. وقد دأب كتاب المسرحية في هذه الحركة على محاولة إظهار ما يعتقدون أنه طبيعة الحياة التي هي بالضرورة لا معنى لها. وكان صمويل بيكيت الأيرلندي وأوجين يونسكو الروماني زعيمي حركة اللامعقول وكان كلاهما يكتب بالفرنسية كما كانت أعمالهما المهمة قد ظهرت في مسارح باريس.

أما التطور الرئيسي الثاني فقد كان الرواية الجديدة. وكان من أهم من يمثل هذا التطور ألين رُوبْ-جِرِيليهْ، وميشيل بوتور، وناتالي ساروت، وكلود سيمون. وقد ابتعد هؤلاء الكتاب عن الأفكار التقليدية للرواية مثل سرد القصة الواقعي والعقد. وبدلاً من ذلك فقد كانت قصصهم تركز على وصف الأحداث والأشياء

كما رأتها شخصيات القصة.

وفي سبعينيات القرن العشرين ظهرت حركة نسوية في محيط الأدب الفرنسي. فقد وجه عدد من النقاد معظمهم من النساء أنظارهن إلى كاتبات الأجيال الماضية. وإضافة إلى ذلك فإنهن أخذن في تحليل شخصية المرأة كما ظهرت في القصص مع توضيح اهتمامات النساء في الأدب الحديث. وكانت مارجريت دوراس وهيلين سكسوس من أبرز وأهم الأديبات الفرنسيات في نهاية القرن العشرين.

محمد حامد

obeikandl.com

نفسية قطة

تيوفيل جوتييه

قطتي بيضاء الصدر، قرنفلية الأنف. زرقاء العين، تعيش معي على خير ما يكون الصديق لصديقه. إن نمت نامت تحت قدمي. وأن جلست على كرسي أكتب جلست هي علي متكئة تحلم، وإذا مشيت في الحديقة تتبعني وإذا أكلت زاحمتني، فحالت (أحياناً) بيني وبين لقمتي. أستودعني ذات يوم صديق لي ببغاء أخضر ريثما يعود من سفره. فأستوحش من منزلي، وشعر أنه غريب، فتسلق القفص حتى أعلاه، ثم جثم ساكتاً مرتعداً.

وكانت قطتي لم تر ببغاء قط، فكان مخلوقاً جديداً أمام عينيها، أدهشها منظره فكانت أشبه بقطة محنطة من آثار الفراعنة، وأستغرقت في التأمل كأنها تستعيد في ذاكرتها كل ما درسته من التاريخ الطبيعي على سطح الداروفي حديقة المنزل؛ وكان ما يدور بفكرها يتجلى في نظراتها حتى لأستطيع أن أتبين من عينيها خلاصة أفكارها كما لو كانت تعبر بقول بليغ ومنطق فصيح. كانت كأنها تقول: (ليس هذا المخلوق دجاجة خضراء) ولما بلغت من درسها هذه النتيجة تركت المائدة حيث كانت ترصد الببغاء وربضت في ركن من أركان الحجرة مبسوطة الذراعين مطرقة الرأس ممطوطة الظهر، كأنها نمر يتربص غزالا ورد الغدير.

كان الببغاء يتتبع حركاتها في اضطراب، وقد نفش ريشه ورفع ساقه المرتعشةوسن منقاره على إنائه الذي يأكل فيه، وهدته غريزته إلى أن هناك عدواً يدبر الكيد له.

ثم أخذت القطة تسدد إلى الببغاء نظرات حادة وهو ينظر إليها فاهما حق الفهم ما يجول بخاطرها. فكأنها كانت تقول (لا بد أن تكون هذه الدجاجة لذيذة الطعم على الرغم من أنها خضراء).

وكنت أرقب هذا المنظر باهتمام موطناً نفسي أن أتدخل عند الحاجة.

ثم دنت القطة من الببغاء وأنفها القرنفلي يرتعد، وعيناها تضيقان، وأظافرها تنقبض وتنبسط، وعمودها الفقري يرتفع وينخفض، وأخذت تمني نفسها قرب الحصول على طعم لذيذ، كما يمني الشره نفسه إذا دعي إلى مائدة صفت عليها ألوان الطعام الشهي.

ثم انحنى ظهرها فجأة كما تحنى القوس في يد الرامي، ووثبت وثبة فإذا هي بجانب القفص. فأيقن الببغاء بما هو فيه من خطر وقال بصوت خافت رزين: (هل أفطرت يا جيمس؟) وهي كلمة تعوّد الببغاء أن يقولها كما علمه سيده. فأخذ القطة من الرعب مالا يوصف؛ فلو أن طبولاً دقت وصحافا كسرت، وطلقات نارية دوت، ما روعت القطة كما روعت من هذه الكلمة! إرتدت إذ ذاك إلى الوراء وعلى وجهها أنها غيرت كل آرائها في هذا الطائر، وكان يخيل إلى من ينظر إليها أنها تقول: (ما هذا طائراً. إن هذا إلا إنسان صغير).

هب الببغاء يغني بصوت عال، لأنه تحقق أن كلامه خيروسيلة يدفع بها عن نفسه.

نظرت القطة ألي نظرة أستفهام فلم يقنعها جوابي. فخبأت نفسها في فراشي ولم تتحرك طيلة يومها.

وفي اليوم التالي عاودتها شجاعتها فعاودت الكرة على الببغاء ولكنها لاقت في يومها ما لاقت في أمسها، فاعترفت بهزيمتهاوقررت أن تعامل هذا الطائر باحترام كما تعامل الإنسان.

النجوم

ألفونس دوديه

عندما كنت أرعى الماشية على جبل (اللبرون) كنت أقضي أسابيع طويلة لا أبصر في خلالها مخلوقاً حياً غير كلبي (لابري) وقطيعي في المرعى، وقسيس جبل (الأور) وبعض عمال (البيامون) مارين من هناك في سبيلهم، تلك الجماعة التي أخرستها الوحدة وشغلتهما عن تسقط أخبار قرى الساحل ومدنه. ولهذا كنت أشعر بالسعادة تمر بي كلما سمعت رنين أجراس بغلنا آتيا يحمل إليّ الزاد كل خمسة عشر يوماً، مرة مع أجيرنا ومرة مع عمتي. فكنت أتلقى منهما أخبار البلد من تعميد وزواج وغير ذلك، وأهتم خاصة بما آلت أليه أبنه سيدي الآنسة ستيفانيث، هذه الآنسة التي فاقت أترابها بجمالها الفاتن، وأستفهم بلباقة عما إذا كانت تكثر من حضور الحفلات العامة أو قضاء الليالي الراقصة، وهل تقدم إلى خطبتها أحد. كل ذلك كنت أقف عليه دون أن أترك لمحدثي سبيلاً يلحظ منه هذا الاهتمام البالغ. ومن يسألني الآن لماذا كانت تعنيني هذه الأمور أجبه بأني شاب في العشرين من عمري وأن الآنسة ستيفانيت أجمل فتاة رأيتها في حياتي.

وفي ذات مرة كنت أنتظر الزاد يوم الأحد فتأخر عن موعد وصوله، فحملت ذلك في الصباح على (حفلة القداس الكبير) وفي الظهر على أن الدابة لم تستطع متابعة سيرها لرداءة الطريق بعد هبوب العاصفة الشديدة، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تماماً، بينما الجو في صفاء أديمه، والجبل يرفل في حلته اللؤلؤية. وخرير المياه يشنف أذني. سمعت رنيناً مطرباً كأنه رنين الناقوس في عيد الفصح، فتحققت أن الدابة التي أنتظرها آتية، ولما تبينتها ملياً لم أر معها لا الأجير ولا العمة وإنما رأيت عليها.. أتعرف من!... آنستنا!

نعم آنستنا ستيفانيت نفسها، فقد شاهدتها منتصبة على ظهر البغل بين السلال، موردة الوجنتين كأن نقاوة الهواء وطراوة الجو بعثتا في وجهها الحياة.

وقبل أن تطأ قدماها الأرض أخبرتني أن الأجير المسكين مريض لا يغادر فراشه، وأن عمتي (نوراد) غائبة منذ أيام عند أبنائها، ولما سألتها عن سبب إبطائها أجابت (إني ضللت الطريق) ولكن من يبصرها في أبهى زينتها، بشريطها الحريري المغطى بالزهر، ورداءها اللماع الحواشي، يحكم بأنها كانت تلهو بالرقص لا بالتفتيش عن الطريق بين الأدغال.

آه ما ألطف هذه المخلوقة التي لم تملها عيناي وما أجملها! كنت بالأمس أشاهدها أحياناً في الشتاء وأنا عائد في المساء من الحظيرة إلى المزرعة لأتناول طعامي، فكانت تدخل غرفتها وهي في زينتها وكبريائها دون أن تكلم أحداً من الخدم. . . حينئذ علمت أني ما تأملتها من قبل في مثل هذا القرب. وبعد أليست الآن واقفة أمامي في هذه الخلوة التامة فلم لا أعانقها؟

ولما أفرغت (ستيفانيت) السلال أخذت تتأمل ما حولها باهتمام ثم نزعت ثوبها الفضفاض، الذي لا ترتديه ألا أيام الآحاد، خوفاً عليه من التلف، ودخلت المراح تريد أن تشاهد المكان الذي أنام فيه، وفراش القش المغطى بفروة الخروف، ومعطفي الضخم المعلق على الجدار، وهراوتي الغليظة، وبندقيتي العتيقة، فكان في هذه الأشياء مسلاة لها.

- إذن أنت تقضي أيامك في هذا المكان أيها الراعي المسكين؟ لا بد أن تكون قد مللت الحياة في هذه الوحشة وتلك العزلة! وإلا فقل لي ماذا تفعل، وفيم تفكر؟

فهممت بأن أجيبها: (أني أفكر فيك يا سيدتي) كما هو الواقع، ولكني كنت في حالة اضطراب شديد، فلم أجد كلمة واحدة أقولها لها. ولما توسمت وجهها لاحظت أنها شعرت بما يجول بخاطري، وكأني بها أرادت أن تزيد في حيرتي وتلعثمي لتتلذذ في قرارة نفسها، فقالت:

- وصديقتك العنزة الذهبية اللون، هل تزورك أحياناً؟ أنا لا اشك في إخلاص هذه الشيطانة التي لا يلذ لها الجري إلا على رؤوس الجبال...

ولكن ستيفانيت بوجهها الضحوك، ورأسها المنحني، وإسراعها في العودة إسراعا كاد يجعل في زيارتها إغماضة عين، كانت أشبه بهذه الشيطانة المذكورة.

- أستودعك الله أيها الراعي.

- سلاماً يا سيدتي.

ولم أتم جوابي حتى كانت في طريقها وليس معها غير سلالها الفارغة. ولما اختفت عن ناظري في المنحدر خلت أن الحجارة المتناثرة من حوافر الدابة كانت تقع على قلبي واحدة بعد واحدة.

ومع أنها أصبحت بعيدة عني فقد ظل صوت الحجارة المتناثرة يدوي في أذني. وبقيت حتى أزف المساء كأنني في غفوة لا أتحرك من مكاني خوفا من أن يتبدد هذا الحلم اللذيذ.

ولم أصح الا على صوت يناديني من السفح. وكان الليل بدأ يرخي سدوله والقطيع أخذ يزاحم بعضه بعضاً ليدخل الحضيرة. وبينما أنا أفتش عن مكان الصوت ظهرت أمامي فجأة الآنسة ستيفانيت، ولكن بغير الهيئة التي قابلتني بها في المرة الأولى. قابلتني وهي ترتجف من البرد والخوف، وأثوابها مبللة، فعلمت حينئذ أن فيضان نهر (السورغ) في الوادي بعد تلك العاصفة الشديدة أخذ عليها الطريق، فخافت على نفسها إن هي اجتازته. والأغرب من ذلك أنها ساعة ودعتني ما كان يجب عليها أن تفكر في الرجوع إلى المزرعة، وما كان بإمكاني ان اترك القطيع وحده لأرافقها في طريقها الوعر.

ويظهر أن فكرة الإقامة هذه الليلة في الجبل كانت تزعجها ولا سيما عندما كانت تفكر في قلق أهلها عليها. فكنت أهديء من روعها واطمئن بالها بما أستطيع اليه سبيلا. واذكر أني قلت لها أن ليالي يوليو قصيرة، وان السماء يصفو أديمها بعد حين.

وأشعلت النار بسرعة وأخذت أدفئ قدميها وأجفف أثوابها.

ثم قدمت اليها شيئا من الجبن والحليب. ولكنها لم تكن لتفكر في الدفء ولا في الأكل تلك الساعة، واسترسلت في النحيب حتى كدت أبكي لبكائها.

ولما أرخى الليل سدوله تماما ولم يبق على قمة الجبل غير شعاع حائل من الشمس، والا قطفة من نور في حواشي الأفق؛ أمسكت بيد الآنسة وأدخلتها المراح لتستريح، فتمددت على فروة ناعمة الصوف كنت قد فرشتها على القش الطري، ثم خرجت من عندها لأجلس لدى الباب متمنيا لها ليلة سعيدة. . .

ويشهد الله أني لم تخامرني فكرة سيئة قط، بالرغم من نار الحب المتأججة في دمي. ولكني كنت فخوراً جداً لأن في زاوية من المراح تنام في حراستي ابنة سيدي كأنها نعجة أثمن من تلك النعاج التي ترمقها بنظرات الاهتمام وأشد منها بياضا.

والحق يقال إنني لم أرَ السماء من قبل بمثل هذا الصفاء الذي رأيتها به في تلك الليلة. ولا النجوم بمثل هذا النور الساطع الذي كانت ترسله. .

وفجأة فتح باب المراح: وظهرت منه ستيفانيت. فالغنم كانت تزعجها بأصواتها فتمنع عنها لذة النوم. لذلك أحبت ان تأتي قرب النار. ولما لاحظت منها ذلك وضعت معطفي على كتفيها وأرّثت النار ثم أدنيتها مني. وبقينا مدة جالسين جنبا إلى جنب لا نجد حديثا نفتحه ولا حادثا نشرحه.

ويعلم الذين قضوا بضع ليال في الفلوات أن عالما خفيا يهب من سباته ساعة ينام الإنسان في هذا الانعزال التام والسكون العميق، في هذه الساعة تستيقظ الطبيعة، فالينابيع تغني بصوتها العذب، وترسل المياه الراكدة بريق لألائها السماوي. وتأخذ الأشباح تروح وتجيء، وترتفع في الهواء أنغام خفية وأصوات كالحفيف، وكأن الأغصان أخذت تمتد والأعشاب تنمو. فالنهار يعطي الحياة للمخلوقات الحية، أما الليل فيعطيها للأشياء الميتة. وهذا مما يرعب الإنسان إذا لم يكن له به سابق عهد أو عادة. . ولهذا كانت الآنسة ترتجف أبداً من الخوف، وتلتصق بي كلما

سمعت صوتا كأنها طفلة صغيرة.

وفي ذات مرة تعالت جلبة محزنة من المستنقع في الوادي وارتفعت إلينا تموجاتها مع الأثير. ثم رأينا شهابا جميلا يهوي فوق رأسينا من عل ويتجه نحو ذلك المستنقع كأن الضجة التي كرهنا سماعها تحمل معها بارقة خير. فسألتني ستيفانيت:

- ماذا جرى؟

- نفس دخلت الجنة يا سيدتي.

فرسمنا الصليب على صدرنا ثلاثا وبقيت هي تنظر إلى السماء بنفس مطمئنة، ثم قالت:

- أصحيح ما يقال عنكم معشر الرعاة أنكم سحرة؟

- لا يا سيدتي، إنما نحن اقرب هنا إلى النجوم من سكان السهل، ولذلك فنحن أكثر منهم علما بما يجري فيها.

ثم وضعت يدها على فؤادها وقالت:

- ما أكثر هذه النجوم وما أجملها! أنا في حياتي ما رأيت هذا المنظر.... هل تعرف أسماءها أيها الراعي؟

نعم أيتها الآنية.... انظري! فوق رأسينا تماما ترين (طريق سان جاك) (المجرة) الممتدة من فرنسا إلى إسبانيا، تلك الطريق التي اختطها (سان جاك دي غاليس) ليري الفاتح العظيم (شارلمان) سبيله عندما كان يحارب (العرب) وعلى مسافة منها ترين محفة الأرواح (بنات نعش الكبرى) بأقطابها الأربعة الساطعة. وعلى مقربة منها (الحيوانات الثلاثة). والنجم الصغير المقابل للثالثة هو (السائق)؛ وانظري من حولها هذه النجوم الهاوية، إنها النفوس التي لم يقبلها الخالق في جنته. . . . وتحتها بقليل ترين (المشط) أو (الملوك الثلاثة) (الجوزاء) التي نستعين بها على معرفة الوقت. فيكفي أن القي عليها نظرة واحدة لأتأكد أن نصف الليل قد انقضى. وعلى مسافة منها للجنوب يلمع (جان دي ميلان) سراج الكواكب كلها (الشعري اليمانية) واليك الحكاية التي يرويها الرعاة عنها:

في ذات ليلة دعيت الشعري اليمانية و (الملوك الثلاثة) والثريا

إلى حفلة زواج إحدى صديقاتها النجوم. فتقدمت الثريا رفيقتها وانطلقت حتى استقرت في أعالي طبقات الجو كما ترينها؛ ولحق بها (الملوك الثلاثة) بطريق أدنى؛ أما الكسول (جان دي ميلان) فقد أخره نومه عن اللحاق بها، فاغتاظ ورماها بعصاه ليقفها في مكانها. ولهذا يطلقون أحيانا اسم (جان دي ميلان) على (الملوك الثلاثة).

ولكن اجمل النجوم وأكبرها قدرا (نجمة الراعي) التي تنير لنا الطريق في الفجر عندما نخرج بالماشية إلى المرعى، وفي المساء عندما نعود بها إلى الحظيرة. ونسميها أيضا (ماغلون) وهي الجميلة التي تمشي دائما إثر (بير دي بروفانس) (زحل) لتتزوج به كل سبع سنوات مرة واحدة.

- ماذا تقول! وهل من زواج عند النجوم؟

- نعم أيتها الآنسة.

ولما أخذت اشرح لها محور هذا الزواج أحسست بشيء ناعم يثقل على كتفي في لطف ورقة؛ فنظرت فإذا برأسها الناعس متكئا علي، وإذا بشرائطه الحريرية وتخاريمه اللطيفة وشعره المجعد يحتك بي إلى أن بدأت الكواكب تصفر في سمائها، وأخذ ضوء الفجر ينبثق في الأفق البعيد ليمحو أثرها. أما أنا فكنت أتأمل الفتاة النائمة بشيء من الحزن الخفيف. لا أفكر في هدأة الليل وصفائه إلا بكل ما هو جميل وشريف. وعلى جوانبنا تتابع النجوم سيرها ببطء وسكوت كأنها قطيع من الغنم. وبين الفينة والفينة كنت أشعر أن ألطف وأجمل نجمة كانت قد أظلت الطريق فهبطت إلى كتفي فنامت عليه بهدوء. . . .

هنرييت البائسة

أندريه موروا

لشد ما كانت دهشتي عندما دعاني صديقي روبير بالتليفون إلى زيارته بمنزله، لقد جالت في نفسي خواطر كثيرة أثارت على حربا من الشكوك والريب. لقد كنت أشعر بحنان شديد وعطف خالص لزوجته هنرييت، وكان روبير حسن الذوق لطيف المعشر، يميل إلى المداعبة في شيء من المجون، وهو يعد عاشق من عشاق الخمر الذين يتهافتون على الكأس ولا يتركونها إلا إلى الكأس.

ما عهدت في حياتي ولاء مثل ذلك الولاء الذي كانت هنرييت تتعهده به طوال خمسة عشر عاما لم تذق خلالها يوما واحدا من السعادة.

لقد لقيته في اليوم نفيه وتصافحنا ثم جلست قبالته، وظل صامتا ثم حرك يده في هدوء، وأخرج علبة سجائره وتناول إحداها ثم أشعلها وأومأ إلي برأسه ثم قال:

- إن لي عندك حاجة فهل لك أن تقضيها. .؟ وعليك في الحالين أن تصدقني الوعد. . . إنني لن أسيئك في مادة، ولن أجهدك في عمل، وإنك تعلم أن هنرييت تحترمك وتأخذ بآرائك من غير تفكير، وحسبك هذا منها دليلا على ثقتها بك. إنك رجل قد خبرت الحياة ولا بستها وعرفت عنها كثيرا. . . وهنرييت عاقلة تفهم عنك ذلك بقدر ما أفهم أنا عنك. لقد عرفت بتجاربي الخاصة أنك رجل سديد الرأي، ولا يفوتن صواب قريحتك أن نصائح الزوج لا تلقي من الزوجة أذنا صاغية، ثم نفث من فمه نفثة غليظة من الدخان، ونظر إلي بعينين يفيض منهم الحنان والألم، وعقب قائلا:

- فكر معي يا عزيزي - لقد قيضت لي الظروف عند عودتي من المؤتمر لقيا امرأة، أو لتقل فتاة، ولعت بها لساعتها، هي من

أهل الشمال، وقد تبين لي ذلك من لهجتها وصوتها، وقد تعجب يا صديقي إن قلت لك إن هذه اللهجة وذلك الصوت الأبح، هما اللذان أسر لبي وملكا علي قلبي. . لقد بعثت في هذه الفتاة حياة جديدة. . أوه يا صديقي ما أشد قسوة الظروف وما أمرها! لا يكاد الإنسان منا يتناول الكأس إلى شفتيه الظامئتين حتى يعيدها مجبرا قبل أن ينال منها رشفة هكذا كانت رحلتنا في الطائرة. . لم يتسع الوقت لأن نجرع من الكأس ولو جرعة. . إنك تعرفني يا صديقي. . أنا لا أطيق صبرا على شيء تداعبه نسمة من الشك. . وتعرف أن لذة الانتصاريدفعها جنون الغرام تحملني على أن أركب متن الشطط حتى أنتهي. . .

ولقد دعاني المؤتمر إليه في الشتاء القادم - وستبقى هنرييت - هنرييت المسكينة. . ستبقى هنا يا صدقي، وستبقى بجانبها أنت لتقوم بدورك فقلت:

- بينك وبين زوجتك!. . ومن أين لي ذلك.!

فقاطعني قائلا:

- رويدا يا عزيزي. . هون عليك فالأمر سهل يسير ولن أذهب بك إلى شيء غير ما يصلح من شأن هنرييت، لقد أخذ يتسرب إليها الشك في تلك الرحلة حتى صممت على مصاحبتي. . . وإن ذلك لأمر قريب المحال. . كل ما أريد أن أستمده منك من معونة لا يكلفك إلا أن تفوه ببضع كلمات، وستحدثك هنرييت في هذا الموضوع وتصارحك بكل شيء. . .

فسر لها يا صديقي حاجة الكاتب إلى الظهور في مثل هذا البلد الغريب الذي سأرحل إليه حتى تسوغ سفري. ثم قل لها إن الوقت سيكون قسمة بين ولائم تورث النفس السأم، ومقابلات رسمية تبعث فيها الضجر والملل، ولا يفوتنك ذكر تكاليف الرحلة، فكيف بها إذا صاحبتني وأنا أحرص على راحتها، وأخيرا حل بينها وبين مرافقتي، وخفف من غلوائها فهي لابد لنصحك مستمعة، ولرأيك خاضعة، ولسؤالك مجيبة، ولا تنس - لا تنس أن تقرب إلى ذهنها أني لا أزال باقيا على حبها، وأني سأسهر على سعادتها ما حييت، وفي

الغد ستسنح الفرص لأشهر طوال أعيد إليها خلالها ذكرى أيامنا الماضية الجميلة.

لقد دام حديثه قرابة ساعة، بينما كان صوت أصابعي وهي تنقر على المائدة التي جلسنا حولها في غير انتظام يتجاوب صداه في أنحاء الغرفة، وأخيرا تركني من غير أن يطمئن إلى وعدي، وبعد الظهيرة بقليل لم أشعر إلا ويدي تحمل آلة المسرة ولقد كانت مصادفة غريبة عندما سمعت صوت هنريت تناديني

- برتراند!. . . كيف حالك يا عزيزي الصغير؟. . . أظن أن في وقتك بقية اليوم متسعا للقائي، فهل تسمح بزيارتي!. . سأعد لك فنجانا من الشاي، وربما يكون هناك مشورة بيني وبينك. . . أسرع يا عزيزي

لقد كانت ممسكة بكتاب (باخ) تحركه في يدها في طفولة بريئة، لم تكن هنريت تقل عن الأربعين، ولم تكن تزيد عليها، ولكنها ظهرت لي في هذه الليلة في ثوب فضفاض، وقد شاعت على قسماتها أشعة من نور الشفق الأحمر الحائل كامرأة في الثلاثين.

قالت لي في غير تكلف:

- يا صغيري برتراند! - سأكلفك أمرا تؤديه إلي - واعلم أني سأكون لك مطيعة. . . ولأمرك سميعة. . .

- إنك تعلمين علم اليقين يا هنريت. . .

فقاطعتني قائلة:

- هيه يا عزيزي برتراند! ليس في الوجود رجل أوليه ثقتي غيرك، ولكن الأمر خطير. . . عزيزي برتراند. . . إني. . . أحب. . . شابا يصغرني بكثير. . . إني أعم أنك ستمقت هذا الشاب وستحقد عليه وسيتملكك السخط علي إذا قلت لك أن بينك وبينه تباينا كبيرا. . . هو شاب سلافي جميل طالب بكلية باريس، وهو فوق ذلك راقص ماهر ومثقف إلى حد كبير، وبرغم ذلك لا أرتاح إليه كثيرا، إذ هو مجنون، دنيء الأصل كما يتبين لي. . ولكني على الحالين أحبه. . وأنا سعيدة به.

فقلت:

- أوه. . . وروبير. .!!

- روبير لا يعرف شيئا عن هذا الحادث. . . روبير يرعاني كمن يرعى امرأة مسكينة، أو كمن يشفق على خادمة بائسة عضها الدهر. . . لقد صرت بغيضة إليه وهو بعد في شغل عني بفتاة دانيمركية

- كيف؟ أتعلمين هذا الخبر؟

- هوه!. . . منذ أمد بعيد، وكيف عرفت أنت ذلك؟!

- لقد كان روبير عندي اليوم صباحا

- أحدثك عن هذا الموضوع. . . يا له من نذل جبان!. . . إن صراحتي تجيز لي التماس ضراعتك. . استمع لي يا برتراند. . سيسافر روبير، وسيقضي في رحلته خمسة عشر يوما من شهر أكتوبر القادم، وسأطوف أنا و (فيدين) الجزر الإغريقية

فقلت:

- هنرييت: لا حاجة إلى أن أعيد على مسمعك ليس هناك أمنية لروبير غير السفر، ولكنه لا يعتقد. . .

فقاطعتني قائلة:

- استمع يابرتراند، إني على يقين من سفره. ولقد أخبرني أنه صمم على ذلك، ولكني عارضته، وبكيت وتوسلت إليه، وأخاف أن يوهن ذلك من عزمه

- لقد عسر علي الفهم. . لم هذه الكوميدية. . .؟

- إن ابتسامة واحدة مني يا برتراند لكافية أن تكشف الستار عن نصف رغائبه على الأقل، وأن تخلق في نفسه الشك في علمي بأمره. . . وكل ما أرجوه منك يا عزيزي الصغير أن تحبذ له فكرة السفر وأن تحمله على الاعتقاد بأن في هذه الرحلة ضمانا لمستقبله وعظمته، وإذا ما غير من رأيه وفضل البقاء على الرحيل فلا بد أن يغير من هذه الطريقة في معاملته لي، وأن يزيل من نفسه هذا النوع من الشفقة الخسيسة علي، وقل له إن هو هجر البيت مرة فانه سيعود فيجده خرابا. . ألق في ذهنه هذه المعاني وقل له إن سبيل التعزية الوحيد في غيبته - هو الرحلة الصغيرة التي أفهمتك عنها

فقلت: مسكين أنت يا روبير!

فقالت في هدوء: حقا. . إنه مسكين!

الباقي على قيد الحياة

بلزاك

حين دقت ساعة مدينة (مندا) الصغيرة مؤذنة بانتصاف الليل، كان ضابط فرنسي شاب متكئاً على حافة سياج طويل يحيط بالقلعة، غارقاً في لجة التفكير العميق، وذلك أمر غير مألوف بالنسبة لما يحيط به، ولكنه كان منصرفاً عن كل ما هو فيه من وقت وليل ومكان إلى التفكير القوي، وكانت سماء أسبانيا الجميلة تمتد في زرقة صافية فوق رأسه، وقد رصعت بالنجوم الألاءة، وضوء القمر الساطع ينير هذا الوادي الجميل الممتد تحت قدميه، وهو يشرف على مدينة (مندا) ويعلوها بمائة قدم؛ وكأن الطبيعة قد هيأتها هكذا لتكون في مأمن من رياح الشمال الآتية من هذه الصخرة الكبيرة التي تقوم عليها القلعة، وإذ أدار الضابط رأسه، أبصر البحر يكتنف البلدة بأمواهه الفضية، وكأنه قد استحال إلى قطعة من اللجين الذائب، وكأن القلعة كوكب أو جوهرة ضوء وهاج، وكان وهو في مكانه، يسمع صدى رنات الموسيقى، وعربدة الضباط في الحفلة الراقصة، وقد اختلط ذلك بهمهمة الأمواج الآتية من بعد، وكأن نسيم البحر والليل جددا نشاطه المنهوك، زد على ذلك ما حوله من حدائق فيحاء، وزهور عطرية الشذا، نفاحة الأريج، فكأنه مغموس في حمام من العطر الزكي.

وكانت قلعة (مندا) في حوزة شريف أسباني، اتخذها وأسرته دار إقامة، وكانت ابنته الكبرى (كلارا) الجميلة ترمق الضابط الفرنسي الشاب بنظرات مبهمة، وإن كانت تنم عن حزن عميق.

وكانت كلارا هذه فتانة رائعة الحسن، فوقع جمالها في قلب الضابط الفرنسي موقع الماء من ذي الغلة الصادى، فوقف واجماً يفكر في هذا الجمال، وبالرغم من أن ثروة أبيها كانت طائلة،

وموزعة بينها وبين أخواتها الثلاثة وأختها، فقد رأى فكتور مارشاند (الضابط) أن فيها الكفاية لأن تكون الدوطة كبيرة، ولكن كيف يتسنى له أن يخطب يد (كلارا) ابنة الشريف الأسباني، وهو ابن تاجر صغير في باريس، أضف إلى ذلك ما بين الأسبان والفرنسيس من إحن وكان الجنرال (ج) قد علم من مصدر سري أن المركيز يحاول أن يوقد مشعل الثورة لنصرة فرناند السابع، ولذا أرسل مرشاند ليعسكر في مدينة (مندا) حتى يكون على علم تام بما ينويه الثوار، ولكي يخمد أي حركة يقومون بها ضد الفرنسيس، وفي ذلك الوقت وصلت إشارة بأن المركيز يتصل سراً بالإدارة الإنكليزية في لندن، وليس من البعيد أن يرسل الإنكليز مدداً؛ ومما حير لب فكتور مارشاند أن المركيز قد استقبله وعائلته استقبالاً لا يدل إلا على منتهى الهدوء؛ ووقع بين أمرين، إذ كيف يوفق بين هذا الهدوء الذي يتجلى في المركيز وأعماله، وبين إشارة الجنرال من وجود مفاوضات سرية؟ ولكن سرعان ما تلاشت هذه الخواطر من ذاكرته، حينما مد بصره إلى الأمام، فأبصر عدة مصابيح مضاءة في المدينة، مع أنه أصدر أمره، بأن تطفأ الأنوار كلها في ساعة معينة، على رغم أن الليلة ليلة عيد ميلاد القديس سنت جون، ولم يسمح بالإنارة إلا للقصر فحسب، ومما أحال الشك يقيناً عنده، وبأن هناك يداً تعمل في الخفاء أن رأى ساريات عدة مراكب وسط مياه البحر، تحت أضواء القمر الفضية. وبينما هو سابح في تيار التفكير العميق إذ سمع وقع أقدام خلفه، ولما تبينه وجده أحد رجاله يلهث، وحين رآه قال له:

- أهو أنت يا سيدي الضابط؟

- نعم هو أنا... ماذا تريد؟

- إن هؤلاء الوحوش يزحفون زحف الديدان

- ثم ماذا؟

- لقد رأيت رجلاً يخرج من القصر وفي يده مصباح مضاء، وهذا مما أثار الشك في نفسي، وبعثني على أن أقتفي آثاره، وأظل قريباً منه جهد ما أمكنني؛ أجل! قد يكون مسيحياً محافظاً على

التقاليد، غير أن الحالة التي هو فيها، ومخالفة أمرك، كل ذلك مما يجعل الشك يحوك في نفسي. وثم أمر آخر يا سيدي الضابط، ذلك أني اكتشفت على قيد خطوات منك، عرمة من الحطب.

ولم يكد الجندي يصل إلى هذا الحد من الكلام حتى دوت في المكان صرخة صدعت السكون العميق، وانفجرت قنبلة أودت شظية منها بالجندي لساعته، واندلع لهيب النيران على بعد عشر خطوات فحسب، من الضابط الذي أسقط في يده، وتبين له أن في الأمر دسيسة، وأن الثوار قد تأهبوا للفتك بالأعداء، واضطرب في مكانه، إذ لم يكن معه حسامه؛ وهاهو ذا يرى رجاله وقد تردوا في ساحة المدينة، وصمتت الموسيقى، وتلاشت ضحكات الضباط، ومر على مخيلته ما سيلاقيه - إذا هو ظل حياً - من محاكمة وإهانة، فلم يجد أمامه من وسيلة للنجاة إلا أن يلقي بنفسه في سفح هذا الوادي، حيث يتحطم جسمه على صخوره الجاثمة هناك:

وإذ كان على أهبة تنفيذ ما اعتزم، أحس يداً أعاقته عما هو قادم عليه، فاشرأب إلى صاحبها، فإذا به (كلارا) تهيب به، أم أسرع فان أخوتي على آثاري قادمون.... للفتك... بك؛ وامض إلى الصخرة القائمة عند سفح التل، وستجد حصان أخي (جوانيتو) فامتطه ولا تتريث لحظة، وإلا فقدت حياتك

فحدق الفتى فيها دقيقة، وقد فاضت نفسه بالدهشة، ولكنه تنبه أخيراً، إذ ثارت في نفسه غريزة حب الحياة، تلك الغريزة التي تتمثل في الجميع على السواء، في حيوان أو إنسان، وحمل إليه الريح صدى صوت (كلارا) تهيب بأخوتها، ألا يتريثوا في اقتفاء آثاره، كما سمع وقع حوافر دوابهم تسابق الريح، وهم على صهواتها يرسلون عليه وابلاً من الرصاص الذي يمر بجانب رأسه، ولم يتمهل هو الآخر لحظة في الطريق بل أسرع بالجواد، وبعد بضع ساعات كان في حضرة الجنرال، كان في ثلة من إخوانه يتناولون طعامهم، فارتمى أمامه قائلاً:

- (مولاي. إن حياتي بين يديك، افعل بها ما تشاء؟)

ثم أخذ يقص على الجنرال قصته، فإذا الجميع ينصتون إليه

وكأن على رؤوسهم الطير، وعلى وجوههم غبرة، ترهقها قترة، وألجم الخبر أفواههم، وجعلهم آذاناً فحسب، فلما أتمها قال له القائد العام:

- (يا هذا إني أراك سيئ الحظ، أكثر من أن تكون مذنباً، لا تثريب عليك، وإني لأبرئ ساحتك، إلا إذا رأى المرشال غير هذا)

فسأله الضابط: (وإذا سمع الإمبراطور بالحادثة!؟)

فأجابه الجنرال: (سيكون القتل نصيبك، ولكن دعنا الآن من هذا، وهيا ندبر خطة ننتقم بها من هؤلاء الأوغاد، أوشاب الإنسانية، لابد أن يكون الثأر شديداً، حتى تخمد في نفوسهم الوحشية والدناءة).

وفي ساعة من الزمن، شدت فرقة من الجند رحالها، على رأسها الجنرال، بصحبة الضابط فكتور، وإذا الجنود بمصير زملائهم الذين أخذوا على غرة، ثارت في عروقهم دماء الانتقام واستحلوا شعلة تتأجج لحرق الأسبان، وأقسموا أن ينتقموا لإخوانهم أشد انتقام، وسرعان ما قطعوا المسافة بين مدينة مندا، وبين مركز القيادة العليا.

ورأى الأسبان أنفسهم محاصرين، وعلموا أن الجنرال لا يتردد لحظة في الفتك بأهل المدينة، لا تأخذه في ذلك شفقة ولا رحمة، فبعثوا إليه رسل المهادنة، ورضى هو أن يسلم كل من في القصر أنفسهم إليه، من أحقر الخدم إلى المركيز نفسه، واتخذ القصر مركزاً للقيادة؛ وأمر كل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة، وخدمها أن يقيد، ونكل بالثوار أشد تنكيل، ولم يرحم رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً، بل ثارت فيه غريزته الوحشية، وبينما هو في مجلس من رجاله إذ أقبل عليه فكتور ماشاند، وقال له:

- أسألك يا مولاي أن تجيب لي طلباً، هو أن المركيز يرجوك أن تفرق بين الأشراف والعامة، وذلك بأن تطيح رقابهم بيد الجلاد لا بالمشنقة، وأن تفك قيودهم التي كبلوا بها، ولن يحاولوا الهرب، وذلك عهد قد قطعوه على أنفسهم، وإنه ليتخلى لك عن جميع أملاكه وأمواله إذا عفوت عن أحد أبنائه ووهبته الحياة.

فقال الجنرال: إن أمواله قد أصبحت تبعاً للملك جوزيف، ولكني سأهبه ما طلب، وإن كنت أعرف علة رجائه، في أن يبقى اسم الأسرة، ببقاء أحد أفرادها؛ سأهبه ذلك، لمن يرضى أن يكون جلادهم، ويطيح برقابهم، والآن لا تذكر لي شيئاً عنهم البتة

اجتمع الضباط في الغرفة التالية يتناولون غداءهم، وكانوا في نهم شديد إثر ما كابدوه من نصب وتعب، فأقبلوا على الطعام كالوحوش الضارية قد أنشبت مخالبها في فريسة دسمة بعد طول سغب، وتفقدوا الضابط فكتور، فلم يجدوه بينهم، ذلك لأنه مضى إلى الحجرة التي فيها عائلة المركيز وآلمه أن يرى سادة الأمس مقيدين كالعبيد، قد ارتسمت على وجوههم دلائل الأسى الشديد، واللوعة المرة؛ وأي لوعة أشد على النفس من أن المرء أن يرى عبدا حقيرا يتحكم فيه وهو السيد الحاكم؟ وسرت رعشة في جسد الضابط حين فكر في هذه الرؤوس الجميلة، وأنها ستهوي على أقدام الجلاد مصبوغة بالدماء، وكأنما هم كانوا يفكرون في هذا الأمر نفسه، فقد بعثروا حولهم تنهدات الألم والحزن التي ملأت جو الغرفة، وإذ أبصروا فكتور يدخل حجرتهم اشرأبت أعناقهم، طمعاً في أن يكون حاملا إليهم بشرى العفو، فأمر الجند أن يفكوا قيود السادة، ومضى هو بنفسه يحل وثاق (كلارا) فقابلته على صنيعه هذا بابتسامة اغتصبتها اغتصاباً، ومس في رفق ذراعها البضة الناعمة، وأعجبته خصلات شعرها الفاحم، المتهدل على جبينها الوضاء، وفتنة قدها الممشوق الجميل، وخصرها الأهيف، فسألته هل نجح في مهمته، فهمهم همهمة حزينة، وجال ببصره في وجهها ووجه أخوتها الثلاثة، وكان (جوانيتو) أكبر الأبناء يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وأخوه (فيليب) عشرين ربيعاً، وكان (عمانويل) يبلغ ثمانية أعوام، ذا أنف روماني وطلعة جميلة؛ ثم جمع أطراف شجاعته، وأخبرها برأي الجنرال، فسرت رعدة الرهبة في أوصالها، ولكنها تشجعت ومضت تخبر أباها بما أسره إليها فكتور، وزادت عليه قولها: - أبى عليك أن تأمر (جوانيتو) وعليه أن يصدع بأمرك إذا كان مخلصاً لك، ففي طاعته إياك، وتلبيته لرغبتك إسعادنا!

فلما سمعت الأم ذلك، أحست بالأمل يعاودها، وظنت أن نجاتهم أصبحت قوسين، وما علمت أن المركيز إذ ذاك يطلب من ولده أمراً، تنهد له الجبال هدا، وإذ تبينت حقيقة الأمر واطلب ارتدت إلى الوراء، تعلوها صفرة اليأس، وعرف جوانيتو السر فثارت دماء الغضب حارة في عروقه، وهب ثائراً كالأسد، قد ألفى نفسه أسير قفص من الحديد، بعد أن كان يطأ الثرى، في زهو الأمير، ويرى الغابة كلها تكاد تضيق عن خطى أقدامه، ولكن الأب هدأ كل ذلك، بأن قال: (جوانيتو)

فكانت إجابة جوانيتو هزة الرفض من رأسه، وارتمى خائراً على مقعده، يصعد ناظريه في أبويه، وقد تجلت الدهشة والأسى والغضب في عينيه الحائرتين، فلما رأت (كلارا) إصرار أخيها على الرفض، تركت مكانها إلى حيث جوانيتو، وطوقت عنقه بذراعيها الغضتين، وجثت أمامه وقبلته في عينيه قائلة:

- (أي جوانيتو: يا أعز ما أملك، آه!... ما ألذ الموت إذا كان من يدك!... إنك لا تدري حلاوته... كما أشعر بها الآن... أنقذني.. يا جوانيتو.. من يدي السفاح.. الملوث اليدين... حتى لا يقال... إن جلاداً حقيراً... أطاح رقاب العائلة الحاكمة.. وأنقذني من بين براثنه.. وبراثن رجل آخر).

ثم نظرت شزرا إلى فكتور، نظرت إليه نظرة تفيض حقداً وكراهية واحتقاراً، وكأنها بذلك تثير في نفس أخيها الحقارة للفرنسيس، وتشعل الضغينة في نفسه عليهم،... ثم قال له أخوه فيليب متوسلاً: (كن شجاعاً صنديداً وإلا محوت عائلتنا الشريفة من العالم).

وأمره الأب، فلم يلب طلبه، فجثا أمامه، هو وأخوته جميعاً ورفعوا أكفهم متوسلين إليه أن يضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة، وأن ينقذ اسم العائلة من أن يدنس، وعرف الأب من أين تؤكل الكتف، فأهاب به قائلاً: (أي بني. أغادرتك شجاعة الإسباني، وإحساسه الشريف؟ أأجثو أمامك... وأتوسل إليك... ولا ترد طلبي إلا خائباً؟ أتفكر في ألمك فحسب. ولا تزنه

بآلامنا جميعا. . إذا أصررت على المكابرة) ثم التفت إلى زوجته قائلا: أهذا ولدي يا زوجتي؟

فصاحت به الأم في يأس: (سيلبي طلبك. . أيها المركيز!!) ولمحت جبين جوانيتو ينعقد أكثر، وتبينت أنه يألم لها أكثر من الجميع وحينذاك كانت الثانية (ماركينا) قد تعلقت بأطراف ذيل أمها، بقبضتيها الضعيفتين، وأخذت تذرف الدموع، فلما شاهدها (فيليب) انتهرها ولامها، وإذ ذاك دخل الحجرة كاهن المدينة، فالتفوا حوله كصغار الطير، ومضوا به إلى جوانيتو الصامت، فلم يستطع مرشاند، أن يرى هذا المنظر الأليم، فبارح الغرفة إلى حيث اجتمع الجنرال مع بعض قواده يجرعون الخمر، وقد أصدر أمره بإحضار فرقة من الجند تذب الناس عن أن يقربوا من جثث الخدم المشنوقين، مدلاة أمام أعين السابلة، ووقف الجلاد بهيئته المفزعة ليحل مكان جوانيتو إذا خانته شجاعته، ولم يستطع أن يقوم بتنفيذ ما عهد إليه، وصدع هذا السكون الضارب أطنابه على المكان وقع أقدام عائلة المركيز، يحيط بهم الجند مشهرين سيوفهم، يلمع في ظباها الردى، ولم تفارق الهيبة أفراد الأسرة، وكانوا يتقدمون إلى حيث النطع ممدود في خطوات هادئة، لا أثر للخوف أو الاضطراب فيها، غير أن أحدهم قد علته صفرة الأموات، متكئاً على ذراع الكاهن الذي أخذ يهدئ روعه المضطرب، بترانيم دينية، فعرف الجميع حينئذ أن (جوانيتو) سيقوم بمهمة الجلاد في إطاحة الرقاب، وجثا الجميع قريبين من المقصلة، وأي مشهد آلم للنفس من أن ترى عزيز قوم ذل؟ لقد كان المركيز وزوجته وابنتاه، وولداه أمام جوانيتو، الذي أسر إليه الجلاد بعض الكلمات حينذاك اقتربت (كلارا) من أخيها، وصاحت به: جوانيتو، ابدأ بي إذا أردت أن ترفق. . . بشجاعتي المنهوكة. . . هيا. . أطح رأسي أولاً!!

وساعتئذ أبصر الناس الضابط (فيكتور مارشاند) مسرعاً نحو (كلارا) التي جثت على ركبتيها تتأهب للأمر الواقع، وتستعد لأن يطاح رأسها، فلما حاذاها تماماً قال لها في أذنها: (إن الجنرال

ليعفو عنك ويهبك الحياة إذا رضيت بي زوجاً!)

فصوبت إليه نظرة ملؤها الكبرياء بنفسها، والازدراء له، ثم صاحت بأخيها، كأنها اللبؤة الضارية: (هيا، يا جوانيتو. . فإني. . . على أتم الاستعداد. . . .) وإذ ذاك أبصر الناس رأسها الجميل يتدحرج تحت قدمي أخيها، وقد انفصل عن جسدها، وسرت الرعشة في جسد أمها، ولكنها ملكت عواطفها، وتقدم أخوه عمانويل وسأله: (أتراني في مكاني تماماً. . أيها العزيز جوانيتو؟)

ثم أقبلت إليه أخته الصغيرة (ماركينا) والدموع تنهمر من عينيها، فسألها: (أتبكين يا أختاه؟)

فقالت: نعم يا حبيبي جوانيتو، إني أبكي من أجلك. . . . لشد ما يؤلمني أن تظل وحيداً حين تتفقدنا جميعاً فلا تجدنا معك)

ولكنه رفع السيف وأهوى به على رقبته الصغيرة، وإذ ذاك تقدم منه أبوه المركيز، فصوب ناظريه، وصعدهما، في دماء أبنائه الجارية تحت قدميه، كأنها المياه المتدفقة شاهدة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ثم التفت ناحية الجماهير الذين عقدت الدهشة ألسنتهم، فكانوا أصناماً لا تتكلم، أو تتحرك تأثراً من هذا المشهد المروع، ثم مد يده إلى جوانيتو، وصاح في صوت قوي النبرات حادها، وقال:

(أيها الإسبانيون! إني أبارك ولدي، وأهبه دعوات الأبوة والآن هيا أيها المركيز. أطح رأسي، ولا يأخذك الخوف أو الرعب، هيا. لا تثريب عليك)

فلبى نداء أبيه صامتاً حزيناً، وإذ ذاك أقبلت أمه، منهوكة القوى، خائرة الأوصال، كيف لا وقد رأت أبناءها جميعاً، وزوجها المركيز، تطاح رقابهم، كأنهم الماشية بل أحقر، ذلك قلب الأم الذي:

لا ربة النسيان تر... حم حزنه وترى بكاء
كلا ولا الأيام تب ... لى في أناملها أساه
إلا إذا ضفرت له ال ... أقدار إكليل الجنون
وغدا شقياً ضاحكاً ... تلهو بمرآه السنون

أقبلت أمه متكئة على ذراع الكاهن، ونظرت إليه نظرة الوداع

ممزوجة بأحر الألم، فما رآها حتى تنبهت حواسه الخامدة وثار غاضباً، وقال:

- (إن ثديها هذين قد أرضعاني صغيراً)

فانتفض الجميع، حين سماعهم هذا، وانتزعت تلك الكلمات صرخة الفزع من قلوبهم جميعاً، وسكنت ضحكات الضباط، وعرفت المركيزة وقتئذ أن شجاعة جوانيتو ولت، ولم يعد ذلك القوي، فجمعت ما تبقى من شجاعتها المبعثرة، ثم قفزت من فوق قمة المنحدر فهوت إلى القاع، وقد مزقتها الصخور الجاثمة في أسفله شر ممزق، فهتف الجمهور المشاهد هتاف الإعجاب، أما جوانيتو فقد رقد مسجى مغمى عليه، فحملوه إلى الخارج حيث عاش وقد أسموه (الجلاد).

obeikandl.com

obeikandl.com

صديقة الطلبة

الفريد ديمسيه

- 1 -

كان بين طلاب معهد الطب في جامعة باريس فتى لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر يدعي (أوجين أوبرت)، وهو من أسرة طيبة أقام أبواه في الريف وخصصا له نفقات ضئيلة كانت تقوم بأوده، وكان الشاب محبباً إلى رفاقه لطيب عنصره ودماثته وسخائه، وإنما كانوا يأخذون عليه انصرافه إلى الوحدة ورغبته عن الملاهي حتى لقبوه (بالطفلة) فكان يبتسم لدن سماع اللقب يقيناً منه أنه دعابة نزيهة.

وكان أوجين يمقت الغانيات ويعدهن من جنس خطر غادر، فيسرد بين سمع صحبه وبصرهم أدلته الوفيرة على رأيه، إلا أن هؤلاء كانوا يسخرون من مزاعمه، وبذهم في ذلك فتىً من خلانه مرح ماجن يدعى مارسيل كان لا يفتأ يحاوره ويجادله:

- أتزعم أن خطأ أو عارضاً حدث اتفاقاً يجيز لك وضع قاعدة مطردة!...

- بل إني أرى وجوب اجتناب أمثال هذه الأخطاء خيفة تكررها.

- هذه سفسطة...

ويطول الحوار في المقهى، والرفاق شهود، ويحرص مارسيل خلاله أن يثبت لأوجين أن النساء وخصوصاً العاملات منهن طاهرات وفيات، ثم يتخلص من ذلك إلى وصف جارة لأوجين اسمها ميمي بنسون بأوصاف مغرية يمل منها هذا فيتناول قبعته وينسل بلطف تاركاً مارسيل والمواعظ تتدفق من بين شفتيه...

لم تكن ميمي بنسون جميلة بالمعنى المعروف لدى الباريسيين، ولكنها كانت عاملة فتانة، وهناك فرق بين الغادة الوسيمة والعاملة الوضيئة، فتلك إذا ما ارتدت ثوباً بسيطاً وصداراً من حرير وخماراً صارت عاملة رشيقة، وأما هذه فأنها لو لبست رداء زاهياً ومعطفاً مخملياً فوقه وغطت رأسها بقبعة، فربما بدت حسناء، وقد تترآى للعيان كمشجب علقت عليه الثياب المذكورة.

وقد كانت الآنسة بنسون ذات أنف أخنس وفم أشدق وأسنان جميلة ووجه مستدير وعينين براقتين فيهما حور، وشعر أسود؛ وليست هذه أوصاف حسن باهر، ومع ذلك فقد قرر مارسيل إغواء أوجين وإغراءه بحب هذه الفتاة؛ ولعل هذا لأنه كان هو نفسه مغرماً بالآنسة زليا صديقة الآنسة بنسون الحميمة، راجياً أن يكون التحبب داعية الحب. ولئن كان ذلك ممكناً، بل لو كانت المصادفة أقوى الفتن والغوايات، فكم من أناس عجز الاتفاق عن التغلب عليهم وباءت المصادفة بالفشل إزاءهم. . . ومن تلكم النفوس كانت نفس أوجين.

لم يكن مارسل يجهل سجايا خدينه، فرسم خطة سهلة أيقن أنها رائعة فعالة في التغلب على ثبات صاحبه ومقاومته، ذلك أنه أولم احتفاء بعيد مولده وليمة كان قد هيأ لها بضع زجاجات من الجعة، وقطعة لحم قديد، وشيئاً من السلطة، وقرص حلوى كبير، وزجاجة من خمر شمبانيا. ودعا طالبين من رفاقه، وطلب إلى صديقته زليا أن تأتيه مساء يومئذ وبصحبتها الآنسة بنسون. وفي الموعد المضروب عندما كانت الساعة تدق السابعة طرقت العاملتان الباب ودخلتا: زليا مرتدية ثوباً قصيراً مشطباً، وبنسون رداء أسود لم يكن يفارقها. وبعد أن جلستا واحتستا الكأسين الأوليين استأذنهما رب المنزل في التغيب قليلاً، وقصد تواً إلى منزل أوجين فوجده كعادته محاطاً بكتبه مكباً عليها، فبعد كلمات منمقة غير ذات معنى، بدأ يلومه برقة وينعى عليه إجهاده نفسه،

وبنصحه بوجوب الاستراحة والتلهي، ثم اقترح عليه القيام بنزهة قصيرة، فقبل أوجين الاقتراح لأنه كان متعباً بعد إذ قضى يومه في الدرس والمطالعة. وبعد جولة لم يعد صعباً على مارسيل أن يستزير صديقه، وكان الفتاتان قد أطلقتا لنفسيهما العنان إذ داخلهما السأم من الانتظار، فخلعتا وشاحيهما وحسرتا، ثم أخذتا ترقصان وتتذوقان ما على الخوان على سبيل التسلية. فلما دخل الشابان وقفتا في ذهول وقد توردت وجنتاهما، ثم حيتا أوجين في استحياء وحيرة ودهشة لعرفانهما سلوكه واعتزاله، وبعد أن أجالتا فيه النظر عادتا إلى الرقص والغناء؛ أما أوجين فقد تقهقر ليولي الأدبار لولا أن أقفل مارسيل الباب وألقى المفتاح على المائدة وصاح:

- لقد امتلكنا هذا النافر المعتكف.. أقدم لكما يا آنستيّ أفضل شاب في فرنسا، وهو راغب في التشرف بمعرفتكما منذ زمن طويل، وإنه جد معجب بالآنسة بنسون.

فكفت الصبيتان عن الرقص، وحيتا أوجين كرة أخرى، وقال له مارسيل:

- إني قدتك بالرغم منك لتشاركني في عيدي الخاص، فهلا فعلت؟

وبإشارة من مارسيل قالت له بنسون بصوت عذب: ذلك رجاؤنا يا سيدي.

ووافى القوم آنئذ الطالبان المدعوان، فلم يعد لأوجين سبيل إلى الخلاص فجلس على مضض.

- 3 -

دام العشاء إلى ساعة متأخرة أكثر خلاله الفتية من تدخين اللفائف واحتساء العقار. أما العاملتان فكانتا فكاهة المجلس وتعلة السامر بأحاديثهما الشائقة وفيها المعقول والمبالغ فيه: فمنها أن كاتبين ربحا في القمار عشرين ألف فرنك وبدداها مع عاملتين

خلال ستة أسابيع؛ وأن ابن أحد أعاظم أغنياء باريس قدم لغسالة معروفة (لوجا) في الأوبرا وداراً في الضاحية فرفضتهما وآثرت أن تظل بارة بأبويها العجوزين، وأن وجيهاً زار عاملة فنفاها أولو الأمر إلى أمريكا وأعطوها محفظة مفعمة بالأوراق المالية...

فقاطعهما مارسيل أخيراً قائلاً: إن زليا تبتكر وتغرق، أما الآنسة ميمي فقد فاتها أن الكاتبين ما ربحا شيئاً، وما قدم الغنى غير برتقالة، والعاملة في المستشفى في أشد حاجة إلى القوت...

نهضت عندئذ بنسون - وقد لاح لأوجين أنها اصفرت عند سماعها الجملة الأخيرة - فقالت:

- إن كان مارسيل لا يصدق القصص فليسمع هذه الحادثة وقد كنت أحد أبطالها:

ذهبت في الأسبوع الفائت مع اثنتين من صديقاتي وهما بلانشت وروجيت إلى مسرح (الأديون) لمشاهدة رواية، فاستأجرنا لوجاً ودفعت روجيت الثمن - إذ كانت قد ورثت مالاً، فرآنا ثلاثة طلاب ودعونا للعشاء، فقمنا إلى مطعم المسرح مع الأبطال وأخذنا نطلب أفخر الأطعمة وأغلاها وأسرفنا في الطلب؛ وكنا كلما قدمت صفحة تناولنا منها لقمة أو لقمتين ثم نستبدلها من غيرها، والشبان الثلاثة يحرقون الأرم على أن لو استطاعوا ازدراد شيء من الصحون المرفوضة أو المعادة؛ وجعلوا أخيراً يفكرون في أمر الدفع فقد كان مع أحدهم ستة فرنكات ومع الثاني دون ذلك ومع الأخير ساعته. ثم قاموا متثاقلين يجرون أرجلهم نحو المحاسب الذي ابتدرهم بقوله: الثمن مدفوع، لأن روجيت دفعت الثمن سلفاً. ثم عرضنا على السادة المذكورين إبلاغهم إلى دورهم ولكنهم مانعوا ورفضوا جهدهم فأصررنا وقد تظاهرنا بأننا ثريات نبيلات، وكانت روجيت تقول لي:

- يجدر بنا أيتها المركيزة أن نقود السادة إلى منازلهم.

فأجيبها: حباً وكرامة يا كونتس!

لم ترق هذه القصة للتلميذين صديقي مارسيل، فوجما وقد اغبر وجهاهما، ولعلهما كانا يعرفان تفاصيل الحديث أكثر من

الآنسة بنسون التي طلب منها مارسيل أن تسميهم له فرفضت، فسر أوجين من إبائها وأثنى عليها قائلاً:

- أنت محقة أيتها الآنسة، إذ ليس بين الشبان الذين يملئون الجامعات والمدارس من خلا من خطيئة ارتكبها، أو طيش فعله، ومع ذلك فكل رجال فرنسا البارزين من سياسيين وقضاة وأطباء إنما يخرجون من هناك. . .

وقال مارسيل: هذا حق، فكم من عين قضى طفولته يتناول الطعام في أحقر المطاعم، بل ربما لم يكن لديه ثمن القوت ثم سألها وهو يغمز بعينه: ألم تري بعدئذٍ العشاق المجهولين؟ فأجابته غضبى نافرة: من تحسبنا؟ أولا تعرف بلانشت وروجيت. . . فقاطعها قائلاً: حسناً لا تغضبي، ولكنها قصة ثلاث طائشات بددن مالهن وأضعنه جزافاً كي يسخرن بثلاثة مساكين لا يد لهم في الأمر!

فأجابته: ولم إذن دعونا؟

- 4 -

طلب مارسل إلى ميمي أن تغني، فأنشدت مديحاً قيل فيها يتلخص فيما يلي:

(ليس لميمي غير ثوب واحد وقبعة. رداؤها لا يرتهن مدى الزمن مهما اعتراها من محن).

وكانت الجمل الثلاث الأخيرة لازمة الأغنية، جعل السامعون يرددونها، ويضربون الطاولة بمقابض السكاكين أو بالغلايين فيحدث من ذلك دوي شديد أزعج الآنسة المغنية فقالت: كفى، ليت عندنا آلة موسيقية نرقص شوطاً على إيقاعها.

قال مارسل: لدي قيثارة لكن أوتارها ناقصة.

وقالت زليا: هو ذا بيانو وسيعزف عليه مارسل. فحدجها هذا بنظرة غضب قاسية وقال: إنك تعلمين أنني لا أكاد أعرف عزفاً، وأن ليس سواك من يستطيع أن يلاعب أصابع العاج؛ ولو كنت

طلبت ذلك من أوجين لسقطت على الخبيرولكني لا أريد إزعاجه.

فاحمر وجه أوجين وانسل بكياسة فجلس إلى البيانو وأخذ يعزف فابتدأ الرقص، ولكنه لم ينته إلا بعد أمد طويل إذ جعل القوم ينتقلون من رقص إلى رقص دون كلال أو ملال، وأنهك السهر والصياح أعصاب أوجين فاستولى عليه النعاس ولكنه استمر يعزف بصورة آلية كالفارس النائم على فرسه، وكانت الراقصات تمررن من أمامه كأشباح في الحلم. ولا مرية في أن الحزن يستولي على من يرى غيره يضحك بمعزل عنه، وكذلك عاودت أوجين بلابله ووساوسه فجعل يناجي نفسه:

هذا لعمري سرور من حزن واغتباط من بؤس، وإنها لحظات يخيل إلى أنها اختلست من أوقات الشقاء. ومن يدري أي واحد من هؤلاء الخمسة لديه ما يسد به رمقه غداً؟!

وبينا هو غارق في لجة أفكاره وهواجسه مرت بقربه الآنسة بنسون وخيل إليه أنها اختلست قطعة الحلوى من الخوان ودستها في جيبها.

- 5 -

وانبلج الصباح فانفض السامروتفرق السمار، ومضى أوجين يدلف في الدروب والسكك يستنشق نسيم الصباح العليل وهو ممعن في خوض عيلم من أفكاره السوداء وصاريردد على رغمه:

(ليس لميمي غير ثوب واحد وقبعة). ويتساءل: - هل تدفع التعاسة الإنسان إلى التظاهر بالجذل والسخر من البؤس؟ وهل يفترثغر جائع عن ابتسامة!. . .

وكان يعتاده الأسى إذا ما ذكر أمر اختلاس الحلوى فيهتز حنواً ورحمة ويقلب الأمر ظهراً لبطن ويقول:

- ترى لم سرقت الحلوى ولم تسرق الخبز!. . . ثم لا يلبث أن يلتمس لها عذراً.

لم ينتبه أوجين ليرى أين طاحت به قدماه، فدخل اتفاقاً بعض

المنعطفات التي أدت به إلى أزقة ضيقة، فلما تبين ذلك عاد أدراجه فرأى امرأة هزيلة صفراء الوجه شعثاء الشعر أطمارها بالية خرجت من دار قديمة، وقد بدا عليها السقام واصطكت ركبتاها حتى لم تكد تستطيع مشياً فجعلت تعتمد على الجدران.

وبدا لأوجين أنها تقصد صندوق البريد القريب فابتدرها مضطرباً وسألها عن أمرها وهدفها، ثم مد لها ذراعيه لتستند عليهما وقد شارفت على السقوط فازورت في كبرياء ووجل وألقت إليه بالبطاقة التي تحملها، وأشارت إليه أن يضعها في الصندوق وعادت تجر ساقيها مشية النزيف أمضه الونى حتى دخلت دارها، فتحرك لها فؤاده ورقت لها حناياه وأشاطه الحنو بعد رزانة ففض غلاف الرقعة دون ما روية أو تريث إذ أدرك أن هذه السقيمة قد تقضي قبل أن تتلقى جواباً، وكان عنوان الغلاف: (إلى حضرة البارون. . .) وفحواه ما يأتي:

(أُتل يا سيدي كتابي ولا تهمله، فأنا أموت جوعاً إذ لم أحصل على بلغة منذ أيام، وأمس بت على الطوى وما أزال، وقد لا يصل كتابي إليك إلا وأصبح شريدة بلا مأوى، فقد أقعدني المرض عن العمل لأكسب قوتي وأدفع أجرة المسكن. أرسل لي بربك ديناراً بلا تأخر، ولا تدعني في شك يلتهم ما أبقت الآلام مني، إني منتظرة حتى نهار الخميس في داري: شارع المهماز، واسمي الجديد الآنسة برنان) (روجيت).

دهش أوجين أشد دهشة لما رأى التوقيع وتمتم قائلاً:

- إنها الفتاة التي بددت دراهمها نفسها. . . لقد ألقى بها الداء إلى هذه الهاوية من الذل!. . . وأردف يتابع نجواه:

- ليت شعري ألم تعلم صديقاتها بأمرها؟ أم ترى تركنها تتضور جوعاً وفي العراء من غير ملجأ!. . .

وأفاق من ذهوله كأنما كان في حلم مريع فسارع إلى طاه كان يفتح حانوته فاتباع طعاماً ثم سار يقود أجير الطاهي إلى دار روجيت، فلما وصلها أوعز للغلام أن يطرق الباب ويعطيها الطعام فإن سألته عن مرسله فليقل إنه (البارون. . .) ثم سار متثاقلاً

فأصلح من شأن الرسالة وألقاها في صندوق البريد وهمس يحدث نفسه:

(أما إذا رأت روجيت أن جواب بطاقتها كان سريعاً فستفهم السر من البارون).

- 6 -

كان أوجين يرى من الواجب أن يرفق المائدة المرسلة بالدينار المطلوب ولكنه كان خالي الوفاض صفر اليدين. فإن الطلاب كالعاملات فقراء، وليست الدراهم بضاعة رائجة في الحي اللاتيني؛ لذا قصد فتانا حلاقاً مرابياً في ساحة البانطيون ليرهن بعض حاجاته وهناك ألفى خليله مارسل يحلق لحيته ويقترض مالاً يفي به ثمن عشاء الأمس، فلما أبصره هذا سأله عن جلية أمره فأطلعه بإيجاز على قصده، فسخر منه مارسل وصار يعنفه وأوجين لا يزداد إلا متانة وعزماً، وأخذ يلوم ميمي بنسون وإضرابها من الصديقات اللواتي يتناسين عشيراتهن بالأمس ويوجه إليهن سهاماً صائبة من الانتقاد والاحتقار الشديد إلى أن قال:

- إن فتاتك بنسون غول فظيع عدا كونها متهللة خليعة ماجنة. أما صداقتها فمادية ممقوتة.

فقال الحلاق المرابي واسمه الأب كاديديس:

- إنك قاس وحكمك جائر لأني أعرف الآنسة بنسون وأعتقد أنها نبيلة سامية وهي عظيمة.

فأجاب أوجين: - نعم هي عظيمة في شراهتها وكثرة تدخينها.

فقال المرابي: - ذلك ممكن وأكثر الشبان ما بين آكل وضاحك ومغن ومدخن، على أن منهم من له قلب يحس ويتألم فسأله مارسل: - ماذا تقصد؟

فأجاب الحلاق: - هناك في مؤخرة الحانوت ثوب حريري تعرفانه يا سيدي لأنكما تعلمان أن صاحبته لا تملك سواه، وهي الآنسة ميمي التي رهنتنيه فجر اليوم لكي تسعف روجيت أولاً فإنها في أشد عوز.

ودخل مارسل إلى أقصى الحانوت ليشاهد الثوب العتيد وتبعه أوجين فقال الأول:

- إن أنشودة ميمي كاذبة إذ رهنت ردائها!. . . كم أعطيتها أيها الأب كاديديس على هذه الرهينة الثمينة.

- أقرضتها أربعة فرنكات وكنت لها محسناً لأن الثوب بال قديم.

فصاح مارسل:

- مسكينة ميمي! أراهن على أنها رهنت الرداء لتساعد روجيت؟

فقال أوجين: - أو لتدفع ديناً ممطولاً.

وأردف المرابي قائلاً: وإني لأذكر أن بعض دائنيها حجزوا على أثاث دارها ولم يتركوا لها سوى سريرها وكانت نائمة عليه وقد ارتدت أربعة أثواب فوق بعضها كيلا يأخذ الغرماء واحداً منها، وقد كانت يومئذ في حال خير من حالها اليوم، فلم ترهن ثوبها إذن لتفي ديناً، ويدهشني أن يكون ذلك لمعونة بائسة مثلها.

واسترد مارسل الثوب بعد أن دفع قيمة الرهن، وخرج مع صديقه - الذي أصر على أن الرهن ليس من أجل روجيت - فقصد دار ميمي تنفيذاً لرهان عقداه.

- 7 -

- ذهبت الآنسة إلى الصلاة.

هذا ما قاله البواب للطالبين عندما سألاه عن ميمي.

فصاح أوجين في عجب: إلى الصلاة!

وردد مارسل: إلى الصلاة! هذا مستحيل لأنها لم تبرح الدار. دعنا ندخل فنحن أصدقاء قدماء.

ولكن البواب أكد لهم أنها خرجت مذ هنيهة إلى الكنيسة المجاورة دأبها كل صباح. وفيما هم كذلك إذ ظهرت تجتاز الشارع فأسرع مارسل ينعم النظر في أثوابها فرآها ترتدي غلالة عتيقة مؤتزرة بستارة نافذة من الصوف الأخضر، وقد سترت رأسها بنصيف أبيض فبدت بهذه الأطمار خلابة وأزاحت الستر قليلاً

فبانت قامتها الهيفاء. وقالت للفتيين: - هذا ثوب تفضل.

فقال مارسل - لعمري إنك فاتنة. قالت: إني غدوت كحزمة. قال: بل طاقة ورد، وإني نادم إذا رددت لك ثوبك. قالت: وأين وجدته؟!

قال: فككت أسره، وأطلقت رقه، ودفعت فديته، فهل تغفرين جرأتي؟

قالت: نعم وسأنتقم.

وأخذت ترقى الدرج إلى غرفتها وخلفها الصديقان حتى وصلت إليها، فدخلوا جميعاً. وقال مارسيل: - لا أعيد لك الرداء إلا على شرط.

قالت: ويحك! أشروط! إنها حماقة لا أريدها.

قال: لقد تراهنا! فقولي بصراحة لم رهنت ثوبك؟

قالت: دعني أرتديه ثم أخبركما عن السبب. استرا وجهيكما كي لا أضطر إلى لبسه في الخزانة أو على السطح. فأجاب مارسل: - اطمئني فلن نختلس نظرات.

- إني أثق بكما ولكن قيل: أحذر الأمين.

وخلعت الستارة وألقتها على وجهي الشابين، وأمرتهما بالصمت والخضوع، فقال مارسيل:

إحذري أن يكون في السترخرق نراك منه، فقد جعلنا فعلك في حل من كلامنا.

فهتكت الستار ضاحكة فقالا:

- سرك يا آنسة هلا بحت لنا به وأنجزت وعدك؟

فترددت هنيهة ثم دفعتهما نحو الباب وقالت:

- تعاليا معي فتريا.

- 8 -

بعد مسير غير قصير في طرق ملتوية ودروب ضيقة سار فيها أوجين من قبل وصل الثلاثة إلى دار روجيت فدخلوها، وقد ربح مارسل الرهان لأن الأربعة فرنكات وقطعة الحلوى التي سرقتها

الآنسة بنسون أمس كانت على المائدة مع فضلات الدجاجة التي أرسلها أوجين.

وكان حال المريضة خيراً من قبل، وكان شكرها للمحسن المجهول عظيماً. وقد اعتذرت بواسطة صديقتها بأنها غير قادرة أن تستقبل الشابين فانصرفا متعجبين من هذه الكبرياء وهذه العفة.

وبعد أن حضرا دروسهما في المعهد تغديا معاً، وفي المساء خطرا يتنزهان في الشارع الإيطالي. وأخذ مارسل يحاور عشيره ويحاول إقناعه قائلاً:

- طالما لمتني على حبي هؤلاء العاملات، وقد رأيت من طيب أنفسهن ونبلهن البرهان القاطع. من هو ذلك المحسن الذي قام بما قامت به ميمي من أجل صديقتها؟ إن فتاة ترهن ثوبها الوحيد وتسرق قطعة حلوى لتساعد رفيقتها لجديرة بالتقديس وخلود الذكر. أما تلك العليلة فإنها لا تقل عن خدينتها شرفاً وطهراً؛ ولو أن فيها أدنى شائبة لما طلبت كسائلة صدقة من أحد. وكادت تقضي منتظرة لولاك، فلم تخش موتاً محققاً، وهي التي عرفت حلاوة العيش عندما ألقت بنفسها في النهر مرة من قبل.

فقال أوجين: حسبك يا مارسل! أتظن أن أيامي كهؤلاء بلا عائل ولا سند هن ذوات حنكة أو دراية كافية؟ وهل يا ترى نذرن أنفسهن البائسة للشقاء والتعاسة؟ ليت شعري متى يعدن إلى جادة الخير والصلاح؟ ألا قل لي أولا تعاملونهن يا معاشر الشباب بطيشكم ومجونكم المعهودين؟! هيا بنا إلى دار روجيت المريضة علنا نحملها على أن تسلك الصراط المستقيم، ولن أطلب منها قسماً بل لا أؤنبها ولا أوبخها، ولكني سأقترب من سريرها فآخذ بيديها ويدي صاحبتها وأقول لهما...

ومرّ آنئذٍ أمام مقهى لاح لهما فيه على ضوء المصباح وجها فتاتين تأكلان حليباً مجمداً، فلما رأتا الشابين لوحت لهما الأولى بمنديلها وقهقهت الأخرى ضاحكة. فقال مارسل مقاطعاً أوجين:

- واهاً! إن كنت ترغب أن تحدثهما فهم هنا في مرح ولهو، ويظهر أن البارون قام بالمطلوب.

فأجابه:

أولا يخيفك جنون كهذا؟

نعم! لكني أرجو أن لا تطعن في العاملات وخصوصاً اللواتي على شاكلة بنسون.

obeikandl.com

بقعة من حبر

رينه بازين

1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، هذا كل ما أستطيع أن أذكره عن الثلاث والعشرين سنة الأول من سني حياتي، ومجرد تعداد هذه الأرقام يكفي - كما ترى - لإظهار تشابهها المشترك وتوضيح وحدة اللون بينها.

مات أهلي ولم أعد للطفولة الأولى، وإني لأستحضر صورهم في شيء من الجهد والمشقة، وتكاد معالم البيت الذي شهد حبوي الأول تنمحي من ذاكرتي لولا أنني نشأت غير بعيد عنه أرنو إليه ويرنو إلي، ولكن الدار بيعت وا أسفاه! وغاضت حياتها أبد الدهر، أجل بيع البيت فجرى عليه حكم القدر القاسي وفي هذا المكان اكتحلت عيناي بالنور، وفي مدرسة البلدة تصرم ثمانية عشر عاماً من عمري وقد أعتاد المدير أن يشرح لنا معنى المدرسة وأنها عائلة ثانية لها قيمتها وأثرها في النفس حتى خيل لنا أنها تفضل الأولى بمراحل كثيرة وتسمو عليها شرفاً وقدراً.

وما كدت أنهي دراستي الثانوية وأحمل شهادتها النهائية حتى بعث بي خالي إلى باريس لدراسة الحقوق والتثقف بالثقافة العالية وفي ثلاث سنوات نلت الإجازة التي مضى عليها ثمانية عشر شهراً وهي في يدي، ثم أقسمت يمين المهنة وغدوت - بهذه الصفة المكتسبة على حد تعبير خالي - محامياً متمرناً وكنت كل صباح اثنين أثبت وجودي في المكتب مع زملاء آخرين وظهر لي بذلك أنني حزت ثقة الأرملة واليتيم.

نلت إجازة الأدب - في يسر ولباقة - بينما كنت أتابع دراستي الحقوقية، وأنا الآن أوشك أن أغدو (دكتورا) في الحقوق، ولقد

كانت امتحاناتي حسنة في الجملة، ولكنها ليست في الدرجة التي كنت أرجوها إذ قال لي أستاذي إن الذوق الأدبي عمل فيها عمله الشديد (وطبيعة الحقوق - يا بني - لا تمت - على عادة العلوم - إلى القلب والعاطفة بسبب من الأسباب). أصحيح أن قلبي موزع بين الأدب والحقوق؟ ذلك ما لا أعتقده، ولكنني لن أعترف بهذا إلى أستاذي الذي لم ينس بعد أنني نلت أجازة في الأدب. إنه يبني علي بعض الآمال ومن الطبيعي أن أبني عليه - بدوري أنا - بعض الأماني في الفحوص المقبلة.

وماضي حياتي تختصره ورنقتان نلتهما وثالثة تتراءى لي عن بعيد، وأوشك أن أنالها، ثم خال ذو ثروة كبرى. وإلى تاريخ 10 ديسمبر 1884 لم يكن ثمة حادث يذكر ولكن من يستطيع أن يضمن جمود الحياة فلا تتطور، وهذا حادث خطير جرى لي بعد ظهر هذا اليوم فأثر في نفسي أثره العميق وهاج من خواطري كلما أمعنت التفكير والتحليل له والوقوف عنده.

كثيراً ما كنت أذهب إلى دار (المكتبة الأهلية) للعمل في صالة المخطوطات الخاصة التي تضم بين جدرها الطبقة المشهورة من الكتاب والعلماء المرخص لهم بالعمل فيها، وكنت في كل مرة ألج باب هذه الصالة أحس بشعور الغبطة والكبرياء لوجودي في مكان لا يقبل إلا من كان على جانب من الشهرة وذيوع الاسم. وأتخطى برهبة سدة الحارس الذي اتخذ مكانه إلى رتاج الباب يستقبل الزائرين القدماء ببسمة لا تخرجه عن وقاره وهيبته عندما يمرون به إلى مقاعدهم. ولم تكن بيني وبينه هذه المعرفة الزمنية حتى يجود عليَّ بابتسامة، ولكنه على كل حال كان يستقبلني بانحنائة قصيرة من رأسه وقد اعتاد أن يراني كل يوم فلا يطلب مني البطاقة كما كان يطلبها من الزائرين الجدد وفهمت أنني أصبحت فرداً من أفراد العائلة فما عليَّ إلا أن أجوس خلال البيت بأمن وسلام.

ها أنذا في هذه الصالة الفخمة أسرح البصر في اتساعها وجدرها المزينة التي تشبه في أصباغها الجميلة الألواح الفنية الرائعة فتبعث في النفس شعور الإجلال والتعظيم. وعلق بصري

بما يشبه المنبر فتبينت أن هذا المكان يجلس فيه النفر المختار من رواد هذه الدار الذين يتمتعون بألقاب العلم وأوسمة الأندية الأدبية. وينتثر إلى جانبي هذا الممر على صورة أصبحت عادية سكان المكتبة العلماء، ومن يتأملهم مقوسي الظهور مطرقي الرؤوس حادبين على كتبهم يفترسونها بصمت وسكون رهيبين يتعظم في نفسه تأثير الفكرة في العقل البشري ومبلغ اجتياحها في رؤوس هؤلاء التي قلت شعورها، ومع ذلك فإن هذا الجمع من القرعان كان لا يعدم بعض من برقت شعورهم وغالبا ما ينقطع بعض هؤلاء العلماء القراء - عندما أمر- عن القراءة فيشخصون إلي بعين (تائهة) بلهاء لا تميزني جلياً لإغراقها في القراءة والتفهم، ولكن هذه الأبصار كانت تنحسر عني عندما تلمح تقطيب وجهي فتتصهب العيون وتعود إلى ما كانت عليه وهي أشد ما تكون نشاطاً وشوقاً وندماً على أن أضاعت الوقت في تفحص هذا الآتي الغريب. ولكني كنت أحس بخواطر هؤلاء وبما هم دائبون فيه. هذا يبتدر رفيقه بأنه يدرس منشأ الصناعات والحرف وأصولها، وذاك عاكف على دراسة عصر لويس الثاني عشر، وآخر يهمس في أذن رفيقه: أنا أدرس أحوال المرأة المدنية في عصر طيباريوس، ويسرع آخر إلى شده الجمع بأنه يبحث عن ترجمة جديدة لهوراس. وشعرت بأن جميع من في هذا المكان يبتدرني بالسؤال: وأنت أيها الحدث ماذا جئت تفعل هنا؟ ألا لا تعكر صفو هذا المكان الوقور

ماذا جئت أفعل هنا؟! وا أسفاه!. . . يا سادة. . . وهل أنا في حاجة إلى أن أقول لكم إن خالي ما فتئ يستحثني ويلحف علي في إنهاء أطروحة الدكتوراه ويضطرني إلى العودة إلى الريف ويبدي سأمه من بطئ الوضع والتأليف، وها هو ذا صراخه في كتبه إلي: (أقلل من النظريات يا بني؟... أسرع إلى العمل ودع عالم الخيالات والأحلام وما الذي أهاب بك إلى انتقاء هذا الموضوع دون سواه؟..) والواقع أن موضوع (أطروحتي الرومانية) انتقى خصيصاً لتمديد إقامتي في باريس. (لاتين جونيوس) هذا موضوع أطروحتي - أيها السادة القراء - وأنه لموضوع طريف كما ترون ولكنه صعب عسير

التوضيح، وليس بينه وبين الحياة العملية أقل صلة أو علاقة وهو يسبب لي تعباً كثيراً ونصباً جما، ويا ليتكم تتصورون بعض ما أقاسيه من مشاق الدرس والمراجعات والمطالعات.

ومن الصدق والواجب أن أقول إنني كثيراً ما أمزج مع هذه المشاق بعض القراءات المسلية الجذابة وأرود أمكنة المعارض والملاهي وأن خالي يجهل من أمري كل شيء إلا أنني مدمن للكتب والموسوعات ومغرق في استنطاق أسطرها ومتونها وهوامشها وأن خالي ليعجب كثيراً بابن أخته الناشئ، هذا الراهب الناسك (البندكتي) الذي لا يفارق دور العلم وأروقة (المكتبة الأهلية) في باريس، بابل الحديثة - كما يسميها - مفنياً لياليه وأيامه مع (غايوس) مستصحباً (لانتييه) غير عابئ بكل ما لا يمت إلى هؤلاء بصلة. وأنا أحرص كثيراً على حسن ظنه بي فأرسل له دائماً بطاقات الانتساب للمكاتب ودور العلم موقعة من قيمها ومحافظها وهو دائماً يحتفظ بها حتى يتوفر لديه منها صندوق.

ولقد وصلت هذا الصباح ناشطاً أكثر مني في بقية الأصباح وكأن سوء الطالع كان يرافقني للقضاء على هذا النشاط المنبعث من قرارة نفسي فسبب لي بلية ما كان اشغلني عنها وأغناني!..

تنتصب إلى جانبي سدة قيم المكتبة أريكتان تحملان أوراق الطلب وأقلام الكتابة وقادتني خطاي إلى الأريكة اليمنى ويا ليتني لم أقصدها، إذن لكنت في نجوة عما أنا فيه الآن من أسف وندامة.

أخذت الريشة المتصلة بسلسلة نحاسية وخططت بغير وضوح كثير أسم الكتاب والمؤلف الذي أتوخى مطالعته وأعدت الريشة إلى مكانها، ولكن ما أدري والله كيف أركزتها ولعلها فقدت اتزانها فاضطربت وتدحرجت السلسلة والريشة وأني لأسمع صوتها... لقد ارتجفت وندت نقطة حبر كبيرة... على... على كتاب أثري... أمام أحد الأعلام الشيوخ!.. وإن كنت أذكر لا أذكر إلا انتصاب هذا الإنسان الأبيض الهزيل في ظلام مقعده صارخاً:

- يا للغباوة!.. لقد لوثت الكتاب الأثري!

وملت إلى المقعد أتفحص فعلتي التاعسة فوجدت أن نقطة

الحبر السوداء القاتمة قد استقرت على غلاف الكتاب إلى جانب اسمه المذهب، وها هي ذي تتفرطح فتتشعب إلى ما يشبه المغزل والسنان وأشكال مختلفة، وهنا وهناك انتثرت نقاط صغيرة وتوزعت على صفحته كما تنتثر النجوم في السماء. وإذا ببعض الخطوط تتجمع فتشكل أخدوداً ينحدر فيه الحبر إلى أسفل الصفحة. وتطلعت فإذا أنا محاط بهالة من القراء وكلهم ينظرون إلي بعين متفحصتين فجمدت عروقي وسمرت في مكاني لانتظار الفضيحة وتمتمت بكلمات اعتذاروأسف كانت لا ترد علي ما فات.

وأما قارئ الكتاب فلم ينبس ببنت شفة وكأنه قد فقد الحركة وكنا ننظر سوية إلى تشكل البقعة ونرود بأعيننا خطوط جريانها وانبثاقها على الصفحة وكأنه قد عاد إلى مداركه بعد استقرار البقعة واستكمال الملاحظة فاهتزاهتزازة محمومة وتناول من جيبه ورقة نشاف وشرع يمتص برجفة عصبية لطوخ الحبر ويعالجها بدقة الممرضة تضمد جراحاً. واهتبلت الفرصة لا تقهقر إلى الصف الثالث من المقاعد حيث وضع لي غلام المكتبة الكتب التي طلبتها. وجلست أحمل نفسي على الاعتقاد بأنني لو لم أفه بشيء ولو أنني أتوارى عن الأنظار أو أن أخبئ رأسي بين يدي كرجل أثقلته جسامة المسؤولية إذن لكفيت هذا الغضب وهذا الصخب ولكن الأمر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد، وفوقت البصر قليلاً أسترق تتمة المشهد فإذا بي أبصر هذا الإنسان الأبيض الصغير الذي كان واقفاً إلى جانب القيم يكثر من الحركات بيديه قد أصبح بين يدي وكان تارة يشير بسبابته إلى الكتاب الملوث وطوراً إلي متجها نصف اتجاه، وحزرت من دون ما تعب أو مشقة أنه يقصدني بالكلمات الخشنة التي كان يذروها، وقد بدا لي بنظرة خاطفة أن قيم المكتبة أشفق علي من كلمات هذا الشيخ الذرب، فاحمر وجهي خجلاً وأحسست بالخجل يسير في كل جسمي.

وهاهم أولاء يتصفحون دفتروأظنه البيان الذي يشير إلى قيمة الكتاب وثمنه ومكان الابتياع وانهم ليتآمرون على إفراغ المكان مني وتحديد الجزاء والغرامة!.. أواه!.. يا خال تأهب لتحملها!

إلى هنا استرسلت في أفكاري المحزنة وما رجعت إلى نفسي إلا وشعرت بأن يداً تربت على كتفي دون أن أحس بدنو صاحبها، وقال:

- إن المحافظ يطلبك إليه

فنهضت أتأثر الغلام وما أن حاذيت القارئ الرهيب الذي كان قد استقر به مكانه حتى لمت بعضي في الوصول إلى سدة القيم الذي بدرني:

- أو أنت الذي لوثت هذا الكتاب؟..

- نعم يا سيدي

-... إنك لم تتعمد فعلتك هذه؟

- طبعاً لا، وأنا آسف لوقوع الحادث يا سيدي

- أنت على حق في ندمك وعلى صواب، لأن هذا الكتاب من أندر الكتب الأثرية الموجودة، والبقعة أيضاً من اغرب البقع ولا أعتقد أني رأيت بقعة على هذا الشكل.

وأحسست بأني سأقول له إن الإنسان يلوث كما يشاء، لولا أنني أمسكت نفسي، فقال لي:

- اكتب أسمك وصنعتك ومكان أقامتك؟

فكتبت ما يلي:

(فابيان جان جاك موبارد محامي، 91، شارع رن

- هذا كل شيء؟...

- نعم هذا كل شيء، مؤقتاً ولكنني أعلمك بأن (مسيو شارنو) مغيظ جداً ومن المناسب والمستحسن أن تعتذر له عن الخطيئة التي اقترفتها.

- مسيو شارنو!؟..

- نعم المسيو شارنو عضو المؤسسة العلمية الذي كان يقرأ الكتاب الأثري.

وتساءلت في نفسي عن هذا القارئ الخطير... يا الهي!.. أيكون المسيو شارنو هذا الذي تكلم لي عنه المسيو فلامارون رئيس لجنة التدقيق في أطروحتي؟ أنهما زميلان إذن إحداهما عضو مجمع العلوم السياسية والمعنوية والثاني عضو معهد دراسة النقوش

والفنون الجميلة.

شارنو!.. شارنو!.. أجل ولا يزال جرس هذه الكلمة يطن في أذني ولا سيما في المرة الأخيرة عندما قال لي أستاذي: أنه (أي شارنو) صديقي الحميم من معهد الفنون والآثار. وأحسست بأن خطراً يتهددني في شهادتي وامتحاناتي ونزلت إلى أعماق نفسي أتحسس غوامضها فإذا بي في مأزق حرج ما أهتدي إلى الخروج منه، وأن الخوف يتسرب إلي من جهتين اثنتين:

أولاً- لا أعلم ماذا ينتظرني من الجزاء والعقوبة للكلمة التي فاه بها القيم عندما استكتبني اسمي وكنيتي. وثانياً - أخشى أن يفسد علي هذا العالم (شارنو) عطف أستاذي فلامارون لانتهاكي حرمة الكتاب الذي كان يقرأه، هذا إذا كان نزقا غضوباً كما ظهر لي عند وقوع الحادث المشئوم.

وهل يجب أن أعتذر للمسيو شرنو؟ وأي الأعذار أقدمها له؟ وهل أنا لوثته حتى أسرع إلى الاعتذار؟ أم أن هذا من حق الكتاب الذي احتمل اعتدائي؟ أن المسيو سالم مما لحق بالكتاب وليس على قميصه أو أثوابه شيء من الحبر أو اللطوخ، فلماذا أذن يأخذني بهذه الحدة وهذا الغضب؟.. ولكنني سأقول له:

- سيدي أنا أسف جداً لأنني عكرت عليك الصفو في أبحاثك العلمية. أن كلمة أبحاثك العلمية ستتملق ولا ريب أثرته وإحساسه وستكون مخدراً قوياً لأعصابه المتوترة...

واستجمعت نفسي للنهوض وإذا بالمسيو شارنو يقبل بهزة عصبية وبغضب ما زال يشتد منذ وقوع الحادثة وترتسم على وجهه أمائر الاستياء الشديد من تقلص في الشفاه إلى سهوم في الوجه والنظر وكان يتأبط محفظته وذراعه تضطرب في إمساكها إلى خاصرته. وحدجني بنظرة قاسية... وتابع خطاه.

حسناً يا مسيو شارنو!.. إن رجلا غاضبا في حالتك التي أشهد لا يمكنه استساغة المعاذير ولكنني سأعتذر لك فيما لو تقابلنا إذا كان للأيام أن تضعنا وجهاً لوجه...

obeikandl.com

عزلة

جي دي موباسان

وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوي، قال لي صديق قديم:

- هل لك بأن تجوز ممشى (الشانزليزيه) سعياً على الأقدام؟

انطلقنا بخطوات وئيدة، تظللنا أشجار في مطلع الإيراق، وقد هيمن السكون على تلك البقعة، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب (باريس)، ولقد تهب نغمات باردة تضرب وجوهنا، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزراراً ذهبية!

قال رفيقي:

- لست أدري لماذا أرى الليل - هنا - أجمل منه في مكان آخر؟

يخيل إلي أن أفكاري تتمدد في أرجائه، وأن في روحي هذه المسارب من النور الدافق التي تطمعني - خلال برهة واحدة - بأن اطلع على السر الإلهي للأشياء، ولكن سرعان ما توصد النافذة، فينتهي بإغلاقها كل شيء.

وكنا بين الذهلة والذهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان في الليل أو نمر بمقعد منعزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائي إلا نقطة سوداء. همس في أذني رفيقي: - إنهما لا يبعثان في فؤادي سأماً - ولكن إشفاقاً كبيراً، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لي إلا سر واحد يشغلني، وإن كل عناء في الحياة مصدره أننا نحيا دائماً منعزلين! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة. إن هؤلاء العشاق المنطرحين على المقاعد في الجو الطلق يفتشون مثلنا عما يخفف مضض انعزالهم - وما ذلك إلا عمر لحظة - ثم يظلون منعزلين ونحن أيضاً.

إنهم يحسون هذه العزلة، أقل أو أكثر منا، وهذا كل شيء. منذ حين أقاسي العذاب لأنني أدركت واكتشفت العزلة المروعة التي أحيا فيها، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضي عليها مهما جربنا، ومهما عملنا، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا، ونجاوى شفاهنا، وضمات أذرعنا، فنحن دائماً نظل منعزلين.

إنني قدتك هذا المساء إلى هذه النزهة، فراراً من لجوئي إلى بيتي، لأنني أتألم كثيراً من العزلة التي تهيمن على المنزل، وما عسى يجديني هذا؟ إنني أكلمك وأنت تسمعني، ونحن وحدنا جنباً إلى جنب، ولكننا منعزلان. . . .

يقول الكتاب المقدس: سعداء هم مساكين الأرواح، إن عندهم وهم السعادة، إنهم لا يشعرون بشقائنا المنعزل، ولا يهتون مثلي في الحياة، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية بالفهم وبالنظر، وبالتنبؤ وبالتألم دون نهاية من إدراك عزلتنا الأبدية.

إنك لتراني مجنوناً! أليس كذلك؟

إنني بعد ما أحسست عزلة كياني، خيل إلي أنني أهوى يوماً فيوماً في مهوى مظلم لم يقع طرفي على حافة له، ولم أدرك له نهاية، وربما كان بلا غاية. فأفلت إليه وحدي دون رفيق معي ولا حولي، ولا سالكٍ طريقي المظلمة. هذا المهوى هو الحياة، وخلال ذلك كنت أسمع صخباً عالياً وصيحات وأصواتا فكنت أدنو من هذا الصخب المضطرب متسللا، ولكني لم أعلم علم الحق من أين مأتاه، وما ألفيت إنساناً، وما عثرت على يد أخرى ترتفع في هذا الظلام المسدل علي.

هنالك رجال مثلنا أحسوا هذا الألم الممض وتنبئوا به، منهم (موسى) الصائح:

(من جاء؛ ومن دعاني؟ لا أحد!
أنا وحدي! وهذه الساعة التي تدق
يا للعزلة! يا للشقاء!)

ولكن العزلة - عنده - ما كانت إلا شكاً طارقاً، ولم تكن حقيقة

ثابتة كما هي عندي. أنه كان شاعراً، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامه. إنه لم يكن وحده أبداً. ولكني أراني وحدي وهنالك (غوستاف فلوبير) أحد كبار أبناء الشقاء في هذا الوجود، لأنه كان أحد عباقرته، كتب إلى صديقة له هذه العبارة اليائسة (نحن كلنا في صحراء؛ لا يفهم أحداً منا أحداً) بلى! لا يفهم أحد منا أحداً، فمهما فكروا، ومهما قالوا وجربوا فالأرض هل تعلم ما يجري على مسارح هذه الكواكب المنتشرة كذرة نارية في هذا الفضاء نرى منها على البعد صفاء بعضها، والأكثر عدداً منها ضائع في اللانهاية، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو الحال في ذرات الجسد.

وهكذا الإنسان لا يدري ما يجول في صدر رفيقه الإنسان وإن واحدنا لأكثر بعداً عن الآخر من هذه الكواكب السابحة، وأكثر اعتزالاً لأن الفكر لا يسبر غوره.

هل تعلم شيئاً أبعث على الهول من هذا التماس الخاطف في الأكوان الذي لا نستطيع إدراكه. إننا نحب بعضنا بعضا كأننا مقيدون مبسوطة أذرعنا دون أن نقدر على ضم. على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا، ولكن جهودنا لا تزال ضائعة، وثقتنا غير مجدية، وعناقنا ضعيف، وحناننا باطلاً، فإذا أردنا اتحاداً لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثاني.

إنني ما شعرت أنني (واحد) إلا حين استسلم لصديقي وافتح قلبي له. إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بيني وبينه. هو هنالك، ذلك الإنسان، أرى عينيه تسطعان حولي ولكن نفسه - وراءها - لا أدركها. هو يسمعني، ولكن فيم يفكر؟ أجل! فيم يفكر؟ إنك لا تفهم هذا القلق، إنه ربما يقليني، أو يحقرني، أو يسخر مني، إنه يفكر فيما أقول، يناقشني، يحكم علي، يراني أبله أو أحمق. وأنى لي أن أدرك ما يفكر فيه؟ وأنى لي أن أفهم هل يحبني كما أحبه؟ وما يجول في هذه الجمجمة المستديرة!؟ وأي سر هذا الفكر المجهول في كائن: الفكر المتواري الحر الذي لا نقدر على معرفته ولا قيادته، ولا الاستيلاء عليه، أو الظفر به؟

أنا، أردت بكل نفسي أن أسلم نفسي كما هي وأفتح أبواب

نفسي جميعها. ولكني لم أقدر على هذا الإسلام كله، لأنني أصون في أعماق نفسي (مكان ذاتي الخفية) حيث لا يظهر أحد ولا يقدر أحد أن يكتشفه أو يدخله، لأنه لا أحد يشبهني، ولأنه لا أحد يفهم أحداً!

أفهمتني أنت الآن؟ كلا! إنك لتحكم علي بالجنون، إنك تتأمل في، وتحترز مني! وتسأل نفسك: (ماذا به هذا المساء؟ ولكنك إذا قدر لك يوماً أن تدرك موضع الألم في فعد إلي لتقول لي: (قد فهمتك!) وحينذاك تجعلني سعيداً - ولو عمر لحظة -

هن النساء اللواتي جعلنني أحسن تقبل وحدتي، آه كم تذوقت من الألم في سبيلهن! لأنهن منحني، أكثر من الرجال، التوهم بأنني لست وحيداً!

عندما يحب الإنسان يحس أن عالمه قد اتسع، وأن سعادة - فوق السعادة الإنسانية - تغمره. هل تعلم سبب ذلك؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة؟ يعود مصدره إلى أن الإنسان أعتقد بأنه ليس وحيدا. وأن العزلة أو الابتعاد عن الكيان الإنساني قد انتهى سلطانه، ويا للوهم!

المرأة هي اشد قلقاً منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتة التي تأكل قلبنا المنعزل، وهي الأكذوبة الكبرى من الحلم إنك لتعرف هذه السويعات الجميلة التي نقضيها مع هذا الكائن التي طالت غدائر شعره، وراقت ملامحه أو فتكت لحاظه، فأي هذيان يملك علينا أرواحنا؟ وأي وهم يغمرنا؟

أنا وهي لم نكن إلا واحداً في هذه الساعة، ولكن هذه الساعة لن تحين، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح خادع، أجد نفسي فجأة أكثر انعزالاً ووحدة من أي عهد مضى! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها، ويا لها من عزلة مروعة مؤلمة!

يقول الشاعر (سوللي برودوم)

ليس العطف والحنان إلا هيماناً مقلقاً

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجربا (الاتحاد المحال) بين (الأرواح والأجساد)

وثم وداعاً، فقد انتهى كل شيء، على أن هنالك جهدا في معرفة

المرأة التي كانت كل شيء لنا، وفي لحظة من الحياة، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب! وفي الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن الأكوان أصبحت في عهد اتحاد سري وامتزاج كامل للرغاب، تنزل إلى أعماق نفسها، وكلمة قد تكون تبدي خطأنا، وتطلعنا - كأنها البرق الوامض في الليل - على الهاوية التي تفصل بينها وبيننا!

وهنالك ما هو خير وأحسن في الوجود؛ أن تقضي أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم، سعيداً كل السعادة، مغتبطاً بمجرد قيامها إزاءك. حاذر أن تطلب أكثر من هذا، لأن امتزاج كائنين مستحيل.

أما أنا الآن فقد غلقت أبواب نفسي، لا أقول لأحد عما أعتقد، ولا أظهر ما أفكر، أنظر إلى الأشياء، وأنا عالم ما تحمله إلى العزلة المروعة - دون أن أعلن عنها، وما عسى تهمني الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات؟ لا أستطيع أن أقاسم أحداً فكرة، نفسي تتنصل من كل شيء، وفكرتي الباطنة تظل خافية على الناس، وعندي جملة عامة لكي أجيب بها على الأسئلة التي تلقي علي كل نهار. وعندي ابتسامة تقول:

نعم! حين لا أكلف نفسي مشقة الكلام

لبثنا في مشينا حتى عرجنا في سيرنا على قوس النصر، ثم هبطنا ساحة (. . . .) وكان يعرض فكرته متهملاً وقد أضاعت ذاكرتي الشيء الكثير مما عرضه.

وقفت فجأة باسطاً يده نحو المسلة العالية المنتصبة الشامخ رأسها في النجوم المفنية القصية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها المنقوش بإشارات غريبة، وقد هتف صاحبي:

- إننا كلنا مثل هذه الأرض!

ثم غادرني دون أن ينبس بكلمة

أهو مجنون أم عاقل؟ لست ادري: ولكن يخيل إلي طوراً أنه على بينة من أمره، وطوراً أنه فقد عقله.

obeikandl.com

الغني والفقير

لابروبير

جيتون لامع البشرة، طلق المحيا، ممتلئ الخدين، عينه حادة مقتحمة، ومنكباه عريضان، وصدره منصوب ومشيته مزهوة مختالة، يتكلم باعتداد، ويستعيد من يحدثه، ثم لا يكاد يسيغ ما يفضي به إليه. يخرج منديلاً فخماً ويفرغ أنفه في جلبة شديدة، يبصق بعيداً، ويعطس عالياً جداً؛ ينام في الليل وينام في النهار، ويغط في المجتمعات؛ يشغل من المائدة وفي المجالس مكاناً أكثر من غيره؛ يكون وسط زملائه عندما يتنزهون، يقف فيقفون، يستأنف السير فيسيرون؛ يقاطع ويخطّئ من يتكلمون ولا أحد يقاطعه، ويصاخ السمع لحديثه مهما أطال الكلام؛ كل الناس من وجهة نظره، والجميع يصادقون على ما يرويه؛ إذا جلس تراه قد استلقى في كرسيه ووضع ساقيه الواحدة على الأخرى، وقد عقد جبينه وخفض قبعته على عينه حتى لا يرى أحداً، أو يجذبها عن جهته ليُرى كيف تكتسي بالعتو والصلف. وهو مهذار ضحوك سريع الضجر، معتدّ بنفسه غضوب، جرئ على المعتقدات، سياسي. وهو كتوم لمشاكل الساعة؛ وهو يعتقد في نفسه العبقرية وقوة العقل. ذلك لأنه غني...

لفيدون عينان غائرتان، ولون محترق، وأعضاء يابسة، ووجه نحيل؛ ينام قليلاً، ونومه خفيف جداً. وهو مهموم مشدوه كأنه صاحب ذهن بليد، فهو ينسى أن يقول ما يعرف أو يتحدث عن الحوادث التي يعلم، فإذا ما جازف أحياناً روى بركاكة. يعتقد أنه يثقل على من يتحدث إليه، ويتكلم باقتضاب وتهيب. يذهل عن الإصغاء فلا يناقش؛ يصفق ويبتسم لما يحدث به الآخرون؛ يجري ليؤدي لهم خدمات صغيرة، وهو مجار متملق مطيع، هو كتوم

لشئونهم حيّ، يمشي برفق وقلق كأنه يخشى أن يطأ الأرض؛ يسير وقد خفض عينيه لا يجسر على رفعهما في وجوه المارة، ليس له بطانة لتستمع؛ يجلس خلف من يتحدث؛ يزن في نفسه ما يقال ويتراجع إذا ما رمقه أحدهم؛ هو لا يشغل مكاناً ولا يملأ مقعداً؛ يسيروقد زوى كتفيه وأمال قبعته على عينه كي لا يراه أحد؛ يختبئ ويتوارى خلف معطفه، تختفي عن عينه الطرقات والأروقة إذا ما ازدحمت بالناس لأنه لا يجد وسيلة للمرور من غير أن يُعترض، والانسلال من غير أن يُرى، إذا ما دعاه أحد للجلوس جلس على حافة المقعد؛ يتكلم خفيضاً في المناقشة ويتلعثم، غير أنه صريح فيما يختص بالشئون العامة، ناقم على الظروف؛ له فكرة غير متطرفة عن الوزراء والوزارة. هو لا يفتح فمه إلا ليجيب؛ يسعل ويفرغ أنفه مستتراً بقبعته؛ يبصق فيكاد يلوث نفسه، ينتظر حتى يصير منفرداً ليعطس، فإذا ما اضطر عطس في غفلة من الجماعة، وهو لا يساوي في نظر الناس لا تحية ولا ترحيباً. ذلك لأنه فقير...

obeikandl.com

أماني حسناء

كاتول مانديز

كانت رائعة الحسن غضه الصبا. ظهر الورد في خديها الناعمين فوق الزغب الحريري الجميل. وبدا السحر في أهدابها الوطف الناعسة، وتفتحت أنوثتها الرقيقة عن جسم بض ريان، وثديين بارزين فيهما السحر الحلال، فغدت كزهرة من أزهار التفاح في أوائل نيسان... كلها فتنة، وكلها جمال.

انطلقت ذات صباح تتهادى بين الحقول بتيه وخيلاء؛ يعلو جبينها المشرق سحابة من هّم روع قلبها وأضناه. فرأتها جنية صغيرة كانت تتنقل بين الأعشاب، فحزنت لها وأشفقت على ذلك الشباب. . . فخرجت إليها تجرر ثوبها الأزرق الحريري، وسألتها بصوت هادئ رنان:

- ما الذي يشجيك يا حسناء. . .؟ لقد أوتيت من الحسن ما تتمناه كل فتاة! إن لك لشعراً لونه كلون سنابل القمح في حزيران. . . وإن لك لعينين لونهما في زرقة السماء إذا تنبه الفجر الوسنان. . . وإن لك لفماً رقيقاً وطلعة ساحرة مشرقة، ومشية خفيفة فاتنة، فما الذي ينغص عيشك ويحزنك يا أختاه. . .؟

-. . . . . ؟

- لم لا تقولين ما بك يا فتاة. . .؟ أتشتهين ارتداء ثوب حريري جميل. . .؟

أتودّين لبس حذاء رصع بجوهرة نادرة وزين بشرط ناعمة؟

- أواه! أواه!

- لكن حدثيني. . . مالك. . .؟ أتشكين من الخبر الذي تأكلينه؟ أترغبين في العسل الشهي والرُطب الجني؟. . لشد ما تحزنيني يا صبية! تكلمي وأسمعيني. . أتطمعين في أن تكوني ابنة أمير غني

ظالم ترفلين في قصره بالدمقس وبالحرير بين ستور الخز ونضائد الديباج، وتحيط بك الوصائف والجواري، تغمضين أجفانك إذا أقبل الليل بين أناشيدهن العذاب، وتفتحين أجفانك إذا أقبل النهار بين رقصاتهن السواحر. . . ويأتي إليك الأمراء ينشدون ودك ويطلبون رضاك. . لتنظري إليهم بطرفك الفتاك، أو لتبتسمي لهم بثغرك الفتان. . .! تكلمي. . تكلمي. .

قالت الفتاة وقد وضعت كفيها الصغيرتين فوق وجهها لتخفي ابتسامة علت ثغرها كلها سحر ودلال. .

- كلا. . كلا. . ما أريد هذا ولا ذاك! ولكني أغار. . نعم أغار من الأزهار. إنهن لجميلات. . وإني لأغبطهن تارةً، ويداخل قلبي الحسد لهن أخرى. . . آه لو كنت زهرة بنفسج في أحد المروج الخضر. . .!

- هه. . هه. . إذن كوني زهرة بنفسج يا حسناء. . .!

فانقلبت حسناؤنا فجأة إلى زهرة بنفسج نبتت بين الأعشاب الندية في أحد الحقول. . . وراحت تغازل الشمس في النهار، وراح القمر يغازلها في الليل. . لقد كانت فاتنة تبهر العين وتغريها. ولقد كان لها أريج عَطِرٌ يسكر النفس ويحيها. . . يا لجمالها! إنها ترقد بهناء وسرور. . تضحك وتلهو. . وترسل شذاها يملأ السهل والوادي. . حتى إن أزاهير الغاب حسدنها، ورحن يتهامسن ويقلن: (يا لسحر هذه الزهرة!. إن الفراشات ليتشاجرن من أجلها، ويترامين فوقها. . يا لسحرها. . يا لسحرها!

ولكن. . ما لها. .؟ أن الكآبة قد عاودتها، وكاد الذبول يقضي عليها؛ وإنها لتذرف الدموع صباح مساء. .!

وجاءت إليها جنيتا تمشي فضلاً بثوبها الأزرق الحريري. . . وقالت لها:

- إيه يا زهرة البنفسج! ما الذي يشجيك أيضاً. . .؟ أما تمنيت أن تكوني زهرة بنفسج فكنتها. . .؟ إنك الآن سيدة الأزهار. . . أن صواحبك زهرات الغاب ليحسدنك على جمالك ونضرتك. فتكلمي يا زهرة البنفسج. . .

-. . . . . !

- لك الله يا زهرة البنفسج! كم أنت حزينة... أرغبت عن الحياة بين الأعشاب؟ أتريدين العيش وسط الخمائل والرياض؟ تكلمي.. أيتها الزهرة الصامتة!

-.....؟

- أأصابك الملل يا حسناء من أولئك الفراشات اللائي يطفن حولك ليل نهار ويتشاجرن من أجلك ويسعين لتقبيلك؟

فتنهدت الزهرة ولم تقل شيئا

قالت الجنية:

- لشد ما يغيظني صمتك يا زهرة البنفسج! ألم ترقك الحياة هنا؟ أتريدين أن تعيشي في قصور الأميرات لتوضعي في أواني الصين الفاخرة فيعجب من حسنك كل من يراه! ولتحلي صدور أولئك النواعم الحسان...! آه منك يا زهرة البنفسج... لم لا تكلميني!

قالت الزهرة:

- كلا يا أختاه.. ولكن حسبت أن زهرة البنفسج هي أجمل الأزهار، وما علمت أنها صورة الحزن ورمز الألم..! وأنا أنفر كما تعلمين من الحزن وأخاف الألم... آه لو كنت زنبقة في إحدى الرياض... أن الزنبق لأجمل الأزهار. أليس كذلك؟

- أوه! أهذا كل ما تتمنينه؟ إذن كوني زنبقة كما تريدين!

فانقلبت زهرة البنفسج إلى زنبقة ما رأت العين أجمل منها أبداً. ولكن... لقد عاودتها الكآبة بعد أيام. إنها تريد أن تكون ياسمينه بيضاء.. كلا.. كلا، أن الفل أجمل من الياسمين.. وأن شذاه لمسكر! ولكن... الورد... الورد.. أليس الورد ملك الأزهار؟ إنها تريد أن تكون وردة... وردة حمراء...!

وانقلبت الفتاة من زنبقة إلى ياسمينه، ومن ياسمينه إلى وردة؛ عندئذ قالت:

- الآن طاب لي المقام وطاب لي العيش. لقد أصبحت سيدة الأزهار وهدية الأحباب إلى الأحباب...! وما عليَّ إلا أن ألهو براحة وهناء...!

فلما كان الليل رأت فتى وإلى جانبه فتاة يتقدمان على مهل حتى

أستقرَّبهما المكان إلى جانبها. فهمست في أذن جارتها:

- أواه أنها لجميلة. . . انظري إلى الجمال كيف يرفَّ في وجهها، وإلى السحر كيف يشيع في صوتها. . . لقد كنت أجمل منها إذ كنت فتاة! يا حسرتاه!. . .

وراحت الوردة تنظروتصغي. . . تنظر إلى الحبيب يعانق حبيبته، فيلثم ثغرها ويجس نهدها. . . أو يناجيها بأرق الغزل وأحلاه. في هدأة هذا الليل المقمر الشاحب، فتجيبه بكلمات تخالها قطع الرياض كسين زهراً!

وذرفت الوردة دمعة. . . وقالت

- آه لو بقيت فتاة إذن لكنت. . . ولكان لي فتى. . .! ولكن. . . أن جنيتي قد تولت عني فمن لي بها؟ لقد قالت لي إنها سترجع، ولكن أين هي؟ وتنبهت الوردة عند السحر، فذكرت ما رأته في الليل. . . وما سمعته، وذكرت جمالها وسحرها، وكيف ذهب الجمال وغاض السحر. فذرفت دمعاً بلَّل خديها وراح يروى الثرى؛ وقضت نهارها في وجوم يبعث في النفس الأسى. فلما كان أصيل الغد، وكادت الشمس أن تطفل، رأت امرأة بارعة القد، صبيحة الوجه، تمشي الهوينا إلى جانب رجل في ريعان الشباب، ومعهما طفل يعدو وراء الفراشات فجلسا إلى جانبها. قالت المرأة:

- أنظر إلى طفلنا يا عزيزي. . كيف يهيم وراء الفراشات هه. . . هه. . . أتذكر يوم لقيتني لأول مرة على ضفاف البحيرة في حديثة كهذه، فجئت إلى فصددتُ عنك. . . ثم. . . يا لله لشد ما تزدحم الصور في مخيلتي! ثم جئت إليَّ وكلمتني كلمات. . وكلمُك كلمات. . . وكان يوم الزفاف بعد أسبوع!. . .

أتذكر يوم قلت لي إنك تريد طفلاً يدخل على نفسينا السرور وعلى عيشنا الهناء؟ فأضحك. . . ها هو ذا طفلنا يلهو ويلعب، وها هي ذي الحياة تبسم لنا وتضحك! تعال يا طفلي أقبلك. تعال فأنت الذي أذقني طعم الهناء. . .

وقام الزوج يطبع على ثغر زوجته قبلة أودعها كل معاني الحب والإخلاص. قالت الوردة:

- الآن فهمت معنى الأمومة ومعنى الزواج

كانت الشمس ترسل أول شعاع لها فتنبه شجيرات الورد الناعس عندما جاءت إليها الجنية تقبلها قبلة الصباح وتسألها عما بها فتجيبها بصوت هادئ حزين:

- آه! لن أتمنى بعد اليوم شيئاً! أريد أن أرجع فتاة لأكون أماً!

obeikandl.com

obeikandl.com

الاعتراف

موريس ليفل

وقفت لحظة أمام الباب وأنا ساكن متردد في الدخول. ولم أخط العتبة إلا حين نهتني المرأة التي جاءت بي بقولها: (هنا يا سيدي تفضل!)

لم أر شيئاً عند دخولي سوى المصباح الخافت الموضوع في ركن الغرفة. ثم أخذت أتبين إلى جانب الحائط فراشاً تمدد عليه جسم طويل هزيل حاد التقاطيع. وكانت رائحة النفط تملأ فضاء الغرفة، والصمت شامل كصمت القبور.

ومالت المرأة على الفراش صائحة: (هاهو ذا السيد الذي أرسلتني في طلبه...)

فنهض الشيخ المدد على الفراش نصف نهوض وتمتم في صوت خافت:

- حسن... حسن... اتركينا معاً...

فلما أغلقت المرأة الباب وراءها، قال الرجل:

- أدن مني يا سيدي... أجلس هنا على الكرسي الموضوع بجانب الفراش... إنني أكاد أكون أعمى أصم. معذرة من إقلاقي إياك، فلديّ شيء خطير أريد أن أفضي إليك به

كان وجه ذلك الرجل بارز العظام شديد الشحوب. وقد ظل برهة يحدّق فيّ بعينيه الواسعتين. ثم واصل حديثه بصوت متهدج:

- ولكن قبل كل شيء، هل أنت السيد جرينو النائب العمومي؟

- نعم

فتنفس الصعداء ثم قال:

(إذن يمكنني الآن أن أدلي باعترافي. لقد أمضيت خطابي لك باسم بريبه، وليس هذا اسمي الحقيقي. ومن الجائر أنك كنت

تتذكر معرفتي لولا ما غير الموت من معالم وجهي. . . ولكن دعنا من هذا. . .

منذ سنوات كثيرة، كنت وكيل نيابة. كنت واحداً من الرجال الذين يقول الناس عنهم: إن أمامه مستقبل باهر. وكنت عاقداً العزم على تحقيق هذا الرجاء. ما كان ينقصني سوى الفرصة لإظهار مقدرتي؛ وقد هيأت لي تلك الفرصة قضية في محكمة الجنايات. حدثت تلك الجناية في إحدى ضواحي باريس، وقد أثارت في حينها اهتماماً شديداً بين الناس وخاصة في البيئات القانونية. كانت الشبهات قوية في المتهم، ولكن ينقصها الإثبات القاطع. ولقد دافع المتهم عن نفسه دفاعاً قوياً حتى أحسست وأنا في كرسي النيابة بشعور الشك بل بالعطف يستولي على المحكمة. وأنت تعلم ما لهذا الشعور من تأثير!

ولكني كذبت بالبراهين المنطقة القاطعة كل ما أنكره المتهم، وأزحت الستار أمام القضاء عن سلسلة من الحقائق لا مجال للشك فيها. ولأستطيع أن أقوي أدلة اتهامي، كشفت عن نفسية الرجل وعن ماضي حياته مظهراً كل ما في خلقه من ضعف وما في أعماله من دناءة. وختمت مرافعتي القوية بطلب القصاص من المجرم! وقام الدفاع بعد ذلك بكل ما في مكنته لتفنيد أدلتي، ولكنه حاول عبثاً. . . وحكم على الرجل بالإعدام.

لم يكن للعطف على السجين حينذاك مجال للوصول إلى نفسي. فلقد كنت مندفعاً في إثبات مقدرتي وفصاحتي، وكان الحكم عليه انتصاراً باهراً لي.

ورأيت الرجل ثانية في صباح يوم التنفيذ. ذهبت لأراه وهم يسوقونه إلى المقصلة. فلما رأيت وجهه الغامض اعتراني فجأة شيء من الاضطراب والضيق. . . إن تفصيلات تلك الساعة المشؤومة لا تزال ماثلة في مخيلتي!. . . لم يبد أي مقاومة وهم يوثقون يديه وقدميه. لم أجسر في تلك اللحظة على النظر إليه، لأني شعرت بأن عينيه مصوبتان نحوي في هدوء غير معهود. ولقد صاح حين خروجه من باب السجن ومواجهته المقصلة: إني بريء!

وخيّم السكون على الحاضرين كأن على رؤوسهم الطير. ووجه الرجل الكلام إليّ قائلاً: أنظر إليّ وأنا أموت، فإن ذلك يستحق بضع دقائق من وقتك. ثم عانق القسيس ومحاميه. . . وكانت برهة من أفظع ما مر في حياتي

في خلال الأيام التي مرت على ذلك الحادث، كنت مبلبل الخاطر مضطرب الفكر. كان موت ذلك الرجل هو الشيء الوحيد الذي يستولي على ذهني فلا يدع مكاناً لسواه. وقد كان زملائي يطمئنونني بقولهم: إن ذلك يحدث دائماً في أول مرة

وكنت أصدقهم. إلا أني أدركت على تراخي الزمن أن هناك سبباً لهذا الاضطراب وهو: الشك! ومنذ اللحظة التي فطنت فيها إلى ذلك لم يهدأ لي بال. كنت لا ألبث أن أسائل نفسي: ترى هل كان الرجل بريئاً؟

جاهدت بكل ما في استطاعتي أن أبعد عن خاطري تلك الفكرة، محاولاً أن أقنع نفسي أنه مجرم؛ ومحال ألا يكون كذلك، ولكني كنت أعود فأسائل نفسي: أي دليل حقيقي على إجرامه؟ وتتمثل في مخيلتي لحظات الرجل الأخيرة وهو واقف على المقصلة في هدوء، ويطن في أذني صوته وهو يقول: إني بريء!

قال لي يوماً أحد الزملاء:

ما كان أبدع دفاع هذا الدفاع عن نفسه! لقد كان من المدهش أنه لم يُبرّأ. . . أقسم لك أني لو لم أسمع مرافعتك لاعتقدت أنه بريء!

إذن كان سحر كلامي وقوة رغبتي في النجاح، هما اللذين تغلبا على تردد النظارة، وربما كان لهما أكبر الأثر في تكوين رأي المحكمين. أنا وحدي كنت السبب في قتل هذا الرجل. فإذا كان بريئاً، فأنا وحدي المجرم المسئول عن موت هذا البريء. . .

إن الإنسان لا يتهم نفسه بشيء دون أن يحاول الدفاع عنها وقبل أن يقوم بكل ما يمكن ليريح ضميره. ولقد كان هذا شأني بالنسبة لهذه القضية: فلكي أنجو بنفسي من هذا الشك المؤلم، راجعت أوراق القضية من جديد. . . ولما أعدت قراءة مذكراتي

ومستنداتي، وجدت كل ما بها منطقياً معقولاً. . . إلا أنها مذكراتي أنا ومستنداتي أنا، وهي عمل عقلي الذي حكم على المجرم أولاً، ثم راح يبحث عن الأدلة، عمل إرادتي، وقد استعبدتها الرغبة في إثبات الجريمة على المتهم. . . فدرست وجهة نظر الدفاع من جميع وجوهها. . . أعدت قراءة إجابات المتهم وشهادات النفي الخ. . . وقررت أن أتأكد من بضع نقط فيها شيء من الغموض، ففحصت المكان الذي وقعت فيه الجريمة بدقة، وسألت شهوداً كان قد أُهمل استجوابهم. فلما فرغت من دراسة هذه التفاصيل انتهيت إلى نتيجة حاسمة: وهي أن الرجل كان بريئاً!

وكأن الظروف أرادت أن تشغل ضميري، فصدر الأمر وقتئذ بترقيتي!. . . ترقية هي في الواقع ثمرة لجريمتي الشنيعة.

كانت الشهامة تقضي بأن أعترف بخطئي على الملأ حتى يكون في ذلك عبرة وعظة لغيري. إلا أني كنت أجبن من أن أفعل ذلك. كنت أخشى غضب الناس واحتقار الزملاء، فاكتفيت بتقديم استقالتي دون أن أبين بها الأسباب، ثم سافرت بعيداً عن باريس. ولكن وا أسفاه!. . . إن البعد لا يجلب النسيان

ولقد صار كل همي في الحياة بعدئذ أن أكفر عن خطيئتي التي لا تقبل إصلاحاً. كان الرجل شريداً لا أهل له ولا أصدقاء يمكنني أن أعوضهم عن فقده بالمال. فقررت أن أخصص كل ما أملك من ثروة لمساعدة البؤساء والمنكوبين من أمثاله، عازفاً عن مسرات الحياة. وهكذا عشت وحيداً منسياً حتى هرمت قبل الأوان

ولقد أنقصت نفقاتي الخاصة إلى أدنى حد ممكن. . . ففي هذا الجحر عشت شهوراً وفيه أدركني المرض الذي أموت به الآن. . . والآن يا سيدي قد وصلنا إلى ما أريده منك. . .)

وازداد خفوت صوته حتى صرت مضطراً أن أراقب شفتيه المختلجتين لأستعين برؤية حركتهما على تفهم كلماته

(لا أريد أن تموت هذه القصة بموتي. أريد منك أن تعلنها على الناس درساً لأولئك الذين من واجبهم أن يقتصوا من الناس ولكن بالحق، لا أن يجلبوا العقاب للناس على أي حال. أريد أن تكون

هذه القصة ماثلة أمام عيون رجال النيابة العمومية وهم يؤدون واجبهم في طلب رأس المجرم)

فأكدت له أني سأفعل ما يطلبه

وازدادت رعشة الرجل وهو يواصل حديثه قائلاً:

(ولكن ذلك ليس كل شيء... لا يزال لديّ بعض المال... لم يتسع الوقت لتوزيعه... إنه هناك في درج هذه الخزانة. أريد منك أن توزّعه بعد موتي... لا باسمي، بل باسم ذلك الرجل الذي كنت سبباً في إعدامه منذ ثلاثين عاماً... وزّعه على الفقراء باسم راناي)

فحملقت مردداً:

- راناي؟!... لقد كنت أنا المحامي عنه فهز رأسه متمتماً:

- أعرف ذلك. وهذا هو السبب في طلبي إياك. لقد كنت مديناً لك أنت بهذا الاعتراف. أنا ديرو، وكيل النيابة.

ثم غمغم ببضع كلمات أخرى لم أتبين منها سوى كلمة راناي

هل خنت سر المهنة؟ هل خرقت القواعد التي تحتمها صناعتي؟ إن المنظر المؤلم لهذا الشخص الذي يموت على تلك الحالة التعسة، قد استدرج الحقيقة إلى لساني رغماً عني، فصحت قائلاً:

- مسيو ديرو! مسيو ديرو! لقد كان راناي مجرماً!... لقد اعترف لي وهو في طريقه إلى المقصلة. أخبرني بالحقيقة حين كان يودّعني.

ولكن مسيو ديرو كان قد سقط على الوسادة ميتاً

ومازلت حتى الآن، كلما مرّت هذه الحادثة بفكري أحاول إقناع نفسي بأنه سمعني

obeikandl.com

الهارب من الجيش

ألفونس دوديه

رفع الرجل كأس البيرة إلى شفتيه وهو جالس أمام حانوته يرقب العمال، وقد تسربوا إلى الطريق ميممين شطر بيوتهم. . . حيث تنتظر كلاً منهم زوجته وأولاده.

تلك هي الصورة التي اعتاد الناس أن يروها كلما مروا بحانوت مسيو جورج لوري الحداد. . . في مساء كل يوم.

. . . إلى أن جاءت ليلة خالف فيها مألوف عادته، إذ ظل إلى جوار النار المشتعلة في أتون حانوته، إلى ساعة متأخرة بعد غروب الشمس. . . ظل ساهماً شارد الفكر، يبدو عليه الهم وتعلو وجهه مسحة من الكآبة، غير عابئ بزوجته التي اشتد بها القلق لتأخره فانساقت إلى مخيلتها مخاوف وأوهام صورت لها صنوفاً من البلايا والأرزاء، فهي آناً ترى ابنها الذي اختطفته الحرب يروح ضحية مقذوف طائش، وآونة تخاله صريع المرض أو الجوع، تمتص الحمى دماءه في نهم وشره.

وأخيراً، حين عاد الزوج. . . عقد الخوف لسانها، فلم تجرؤ على تقصي جلية الأمر منه خشية أن يجيء جوابه معززاً لمخاوفها ومبعثاً للحزن والألم. . . فسكتت على مضض والقلق يعتصر قلبها فتعلو خفقاته ويشتد به الأنين.

أما هو فلم يسكت. . . بل قذف بالصحاف التي وضعتها أمامه حين جلس إلى المائدة. . . قذف بها إلى الأرض، فتحطمت محدثة ضجة أفزعت الأطفال فأجفلوا وجفت حلوقهم عن ازدراد ما في أفواههم من طعام. . . وكأن لم يكفه ذلك، فصاح على الفور:

- يا للأنذال المجرمين.

فقالت هي في لهجة تساؤل لينة: من تعني يا عزيزي، وماذا

أغضبك؟... ولم تكد تتم قولها حتى زجرها بصياحه:

(من أعني؟ أتسألينني لم أنا غاضب؟ حسن، إذاً فاعلمي أني حاقد على نفر من الجبناء رأيتهم منذ حين، خمسة أو ستة حسبما أذكر - ما لذاكرتي تخونني كأنها تأبى أن تذكرني أهاجوا الدم في عروقي - ومع هذا فإني أذكر أنهم أخذوا يذعرون طرقات المدينة محتمين بالجند الألمان الذين ساروا إلى جانبهم دون أن يعرف الخجل إليهم سبيلاً... يا للحسرة ويا للألم، لقد هربوا من الميدان وفروا من واجبهم المقدس... لعمري أني لا أدري أي شراب هذا الذي سلبهم كل نخوة وإدراك... يا للعار!)

وهنا عادت الزوجة إلى لهجتها الوادعة فقالت: (خفف عن نفسك يا عزيزي ولا تتعجل في الحكم، فلربما عاودهم الحنين إلى بلادهم فآثروا التحرر من خدمة الجيش... أو ربما)

ولكنه لم يدعها تتم قولها إذ بادرها بالصياح:

(أو تجرئين يا خائنة على تبرير فعلتهم؟)

قالها وهو يلوح بقبضته الغليظة في الهواء، ثم ما لبث أن أهوى بها على المائدة واستأنف القول (ولكنك - كسائر النساء - تعجزين عن فهم شيء من أمور الدنيا، فلقد تأثرت عقلياتكن بسذاجة الأطفال وغطت غشاوة من الجهل على أبصاركن، فبانت الواحدة منكن لا تحسن التمييز بين الضعف والخيانة... أفلا تدركن ما قد فعل أولئك الأوغاد؟ إنهم لمارقون يجب أن تتبرأ منهم فرنسا بل وتلقي بهم إلى الموت... وإلا فإني - وقد أمضيت في الجيش سبعة أعوام كاملة - لن أتردد في الانزواء مبتعداً عن الأرض التي يطئون بأقدامهم الدنسة) تناثرت هذه الكلمات من فم الرجل بل من قلبه - مصدر إيمانه وموطن عقيدته - قوية دافقة فاهتزت لها أركان الغرفة وردد البيت صداها مدوياً مزمجراً.

وكأني بها قد استنفدت كل جهده وهدت من كيانه، فخرج إلى الفضاء كي يسري عن نفسه بعض ما عانت وينعم بقسط من الهواء الذي تركه الله مباحاً حتى لأمثاله من البسطاء البائسين غير مفرق بينهم وبين من يشمخون بأنوفهم نحو السماء وهم من

التراب وإليه مصيرهم المحتوم.

. . . فانطوت الزوجة على نفسها حتى أوى أطفالها الثلاثة إلى مضاجعهم بعد أن اخترقت آذانهم الصغيرة المرهفة تلك الصيحات الجامحة. . . ثم وقفت ومشت إلى النافذة في خطوات وئيدة، وحين بلغتها استندت إلى حافتها بالمرفقين وراحت تتطلع في شوق ولهفة ممزوجين بالقلق، إلى الحديقة التي ترامت الخضرة بين جنباتها؛ وبين التنهدات الزفرات جال فكرها المرهق في شتى المناحي وعاد حاملاً خليطاً من الخطرات:

. . . إنه محق، ويجدر بي أن أوافقه فهم حقاً جبناء أذلاء. . . ولكن مالي وشأنهم، ولِمَ لا يكون الحق في جانبهم. . . أفليست أمهاتهم لم يسعدن بلقائهم بعد فرقة طال عليها الأمد. . . ألسن سيستقبلنهم بشغف وسرور وقلوبهن تقطر ضحكات عذبة رقيقة، وإذاً فما الذي نبغي من الدنيا سوى ذاك؟)

واستمرت الخواطر المبعثرة تتجاذب ذهنها المكدود الذي ما لبث أن نبذها جميعاً ليتمثل ابنها الحبيب في صور سريعة متتابعة: هاهو ذا قبل رحيله إلى الميدان. . . ثم وهو في الحديقة قرب البئر التي اعتاد أن يملأ منها الدلاء ليسقي الزهور والشجيرات.

وانتفضت فجأة. . . على صوت باب الحديقة يفتح ثم يغلق بعد أن ولجه شخص في حذر، كلص متسلل. . . ولكن الكلاب لم تنبح، فماذا دهاها؟

ومن خلفها انبعث صوت متهدج: (أماه). . . يا إلهي إنه هو ابنها الأكبر في سترة الجندية التي كساها الغبار. ولكن ما باله يهمس هكذا. . . صه، إنه أحد الجبناء الهاربين من الجيش. وإلا لنطق صائحاً كعادته. . . نعم فلم يلجمه سوى العار الذي يكتنف أوبته.

وارتمى الابن بين ذراعي أمه معانقاً مستعطفاً فلمس منها صدراً حنوناً وقلباً رقيقاً يصفح عن زلته، كيف لا وقد طغت على حواسها عاطفة جامحة من الحنين والشفقة. . . بل والاغتباط بعودته إلى أبيه. . وأمه. . . والمصنع. إنه لم يطق البعد عن هذا الجو الذي ألف، ليستعيض عن بر الأسرة وعطفها بالأصوات الآمرة الزاجرة

والحياة الجافة المضنية.

. . . واكتفت الأم بدفاع الابن فصدقته وغسلت بدموعها آلامه. . . وهل كانت تملك غيرذلك وعيونهما متواصلة القطرات وفماهما يفيضان بالبسمات.

وصحا الأطفال على صوت الاخوة فهرولوا إلى الأخ الأكبر، حفاة الأقدام، ليتبادلوا وإياه العناق والقبلات.

وقدمت الأم إلى ابنها طعاماً ولكنه لم يقربه وإنما أقبل على الماء يروي ظمأه منه بأقداح متتالية اختلطت في جوفه بما سبقها من الجعة والنبيذ

وبعد لحظات لم تطل ردد الممر أصوات خطى متزنة تقترب. . . إنه الأب الحانق

واندفعت الأم تهمس لولدها: (أسرع يا ولدي بالاختفاء حتى أوضح له الأمر على مهل). وهكذا حثته على الانزواء بدل أن تفخر بالظهور إلى جانبه لوكان قد عاد. . . رجلاً

وحين دخل الأب وجدها تطرز ويدها ترتعد، فقد نسي الابن قبعته فوق المائدة. . . وأبصر الرجل كل شيء فأدرك ووعى، فلم يعد ينفع الإنكار! وبقبضته الغليظة أطاح بالقبعة إلى الأرض وركلها بقدمه صائحاً:

(أين هو. . . كريستيان. . . كريستيان. . .)

تقدم الابن ذاهلاً يكسو وجهه الاصفرار، لا يكاد يقوى على المسير. . . ثم لم يلبث أن تراجع متخاذلاً بينما ارتمت الأم على زوجها تستعطفه:

(بالله لا تقتله. . . فأنا المذنبة. . . لقد استدعيته حين لم أقو على الفراق. . . اعف عنه ولا تكن قاسياً). واسترسلت في نحيب جاراها فيه الأطفال وهم كالأصنام. . . لا تفهم ولا تعي.

ورمى الحداد ببصره إليها وقد ارتسمت على وجهه تجاعيد الصرامة، فالتقطت نظرته القاسية. . . وقد فقدت الجرأة على البكاء.

رفعت الشمس عن وجهها حجاب الظلام بعد إغفاءة طويلة،

والأم المعذبة يقظى لم تغف ولم تغمض لها أجفان. . . بعد أن قضت الليل تنتفض وجلاً من نزوة قد تزين للرجل القضاء على فلذة كبده - ابنها الحبيب - بدافع من الوطنية أو الشرف والكرامة. . . تلك الأشباح التي تهددها في أعز من لها. . . وتوشك أن تفرض عليها ضريبة باهظة.

أما الابن التعس فقد أمضى ليلة لم يكن يخلص منها من حلم مزعج رهيب إلا ليواجه حلماً آخر أكثر إزعاجاً ورهبة. . . حتى فاض الضياء فغمر الكون كله خلا ذلك البيت الذي اكتنفته ظلمة قاسية. . . موحشة.

ومر الليل على الحداد العجوز. . . طويلاً مخيفاً، وهو يبكي وينتحب باحثاً بين غرف البيت عن شيء، لا يدرك كنهه، فقده قبل ساعات. . . ولم يكد الفجر يرسل نوره في عروق الظلام حتى قام الرجل يخطو نحو غرفة ولده حتى ولجها وتقدم إلى الفراش بخطىً ثابتة صائحاً بالابن في صرامة: (انهض) ورفع هذا عينيه المخضلتين بالدموع فرأى أباه بثياب السفر وفي يده عصاه المثقلة بالحديد. . . فلم يتمالك نفسه من الوثوب من فراشه، وأمسك برداء الجندية ليلبسه، ولكن الأب صرخ قائلاً: (كلا. . . عليك بغيرها).

وحين اعترضت الأم بأنه لا يملك سواها، صاح مزمجراً: (إذاً فليأخذ من ملابسي. . . إنها لن تلزمني بعد الآن).

قالها وهو يتناول من ابنه رداءه العسكري ثم عاود الكلام بعد حين: (هيا بنا. . .)

. . . وحين ضمهما الطريق تتابعت في ذهن الابن صور الطفولة في سرعة خاطفة فذكر تلك الأيام السعيدة حين لم تكن السنون قد أثقلت كاهله بعدُ بأعباء الدنيا. . . ولم يلبث أن أطلق من صدره آهة عميقة قال الأب على أثرها بصوت خفيض: (كريستيان. . . إليك مصنعي، فهو كل ما أملك، فخذه ما دمت قد ابتعته بدماء مواطنيك وسلامة بلادك. . . خذه ولتنعم في ظله بما تشاء، مجرداً من الشرف الذي لم تعرفه. . . أما أنا، فذاهب إلى غير رجعة. . . نعم سأوفي عنك الدين لفرنسا فبت قرير العين وعش بلا كرامة.)

. . . تساقطت دموع الابن في لحظة الوداع وانبعثت إلى حلقه غصة أوشكت أن تخمد أنفاسه فنادى أباه بصوت مبحوح: (أب. . تاه)

. . . وخرجت الأم إلى الطريق صائحة: (لوري. . . لوري إلى أين. . .)

ولكنهما لم يسمعا سوى صدى صوتهما، فقد مضى الأب في طريقه. . . ليلحق بالجيش

مضى ليكفر عن خطيئة الابن. . . الهارب.

obeikandl.com

حوار عند الغروب

بيير لويس

أركاس - أيتها الفتاة. . . يا ذات العينين السوداوين
مليتا - لا تمسني!
- لن أمسك. . . سأظل بعيداً عنك - كما ترين - يا أخت آفروديت ويا ذات الشعور الجميلة المعقدة على شكل عناقيد من العنب. هأنذا أقف على جانب الطريق دون أن أستطيع الذهاب، لا إلى الذين ينتظرونني، ولا إلى الذين خلفتهم ورائي
مليتا - أذهب! أذهب! إنك تتكلم عبثاً، وتفوه بما لا طائلة تحته أيها الراعي من غير غنم، ويا جواب الطرق المشبوهة الوعرة إذا كنت لا تستطيع بعد سلوك الطريق العام فاذهب إذن عن طريق الحقول، على ألا تطأ قدماك مرجي المخضوضر. أنت الذي لا أعرفه. . . وإلا ناديت واستغثت
- من عساك تنادين في هذه الوحدة؟
- الآلهة التي تسمعني
- إن الآلهة يا فتاتي الصغيرة بعيدة عنك الآن أكثر مما أنا بعيد عنك بكثير ولو كانت على مقربة منك لما منعتني من إبداء إعجابي بجمالك وسحرك، لأنها تفخر بوجهك الصبوح وتزدهي وتعلم أنه تحفتها الرائعة
- صه أيها الراعي صه! إليك عني. لقد حظرت أمي عليَ الإصغاء إلى أقوال الرجال. إني في هذا المكان أرعى نعاجي الكثيرة الصوف وأحافظ عليها إلى أن تتضيف الشمس ثم تأوي إلى مرقدها. يجب عليَ ألا أصغي إلى أصوات الفتيان الذين يمرون بهذا الطريق، مع أنسام المساء والغبار المتطاير
- ولم ذلك؟

- لست أدري السبب، غير أن أمي تعرفه بدلاً مني. . . لم يمض بعد ثلاثة عشر عاماً على ولادتها إياي فوق سريرها المصنوع من ورق الشجر، وسأكون عاقة لها إذا لم أصدع بكل ما تأمرني به

- لم تفهمي يا فتاتي مقصد أمك الرءوم. . . إن أمك طيبة عاقلة، حسناء محترمة. . . لقد حدثتك إذ حدثتك عن البرابرة الذي يجوبون الحقول والأرياف وهم يحملون المجان في يسراهم والسيوف في يمناهم. . . هؤلاء يا فتاتي يستطيعون إيذاءك لأنك ضعيفة وهم أقوياء. . . لقد قتل هؤلاء الأشرار في المدن التي احتلوها خلال الحروب البغيضة كثيراً من العذارى الحسان اللواتي يضاهي جمالهن جمالك. ولئن عثروا بك في طريقهم فلن يشفقوا عليك. . . أما أنا فأي أذى أستطيع إلحاقه بك، ولست أحمل سوى جلد الخروف على كتفيَ، وهذه العصا في يدي. . . انظري إلى ملياً. . . أمخيف أنا إلى هذا الحد؟. . .

- لا أيها الراعي. . . لست مخيفاً. . . إن ألفاظك عذبة ناعمة، لذا يمكنني أن أصغي إليها طويلاً؛ ولكنهم حدثوني فقالوا: إن أعذب الكلام وأحلاه أكثره إمعاناً في الغدر والخداع، وذلك حين يغمغم به شاب في أذني واحدة منا نحن الفتيات. . .

- أأفوز منك بجواب إذا وجهت إليك سؤالاً؟

- أجل. . .

- بم كنت تفكرين تحت الزيتونة السوداء عندما مررت؟

- لا أريد أن أخبرك به. . .

- ولكني أعرفه!

- قله لي. . .

- إذا سمحت لي بالدنو منك، وإلا فسألزم جانب الصمت، لا أستطيع أن أقوله إلا همساً. . . في أذنك، لأنه سرك وليس سري. . . أتأذنين لي بالدنو. . . وأن آخذ يدك بين يدي. . .؟

- قل. . . بم كنت أفكر؟

- في نطاق زفافك. . .

- ولكن. . . من أنبأك بهذا؟ أكنتُ أتحدث بصوت مرتفع؟

أأنت إله أيها الراعي فتقرأ من مسافة بعيدة ما يجول في خواطر العذارى؟... لا تنظر إلى هكذا... لا تحاول أن تقرأ أفكاري في هذه اللحظة...!

- كنت تفكرين بنطاق زفافك وبالرجل المجهول الذي سيحل عقدته ببعض من ألفاظه المعسولة العذبة التي تخشينها الآن... تُرى، أتخلو هذه أيضاً من الخيانة والغدر؟

- إني لم أستمع إليها بعد...

- ولكنك تستمعين إلى كلماتي، وتنظرين إلى عيني...!

- لا أريد بعد أن أراهما...

- سترينها في الحلم...

- أيها الراعي...!

- لماذا ترتعشين عندما آخذ يدك في يديّ.. .؟ لماذا تنحنين عندما أضمك إلى صدري... ولم يبحث رأسك الكليل عن كتفي..؟

- أيها الراعي...!

- أكان في الإمكان أن أضمك هكذا بين ذراعي وأنت شبه عارية.. لو لم أكن زوجاً لك على وجه التقريب؟

- ولكن لا... لست زوجاً لي... دعني... دعني... إني خائفة.. إليك عني فأنا لا أعرفك. دعني، إن يديك تؤذيني... دعني... فلست أريدك!

- لم تتحدثين إليَ أيتها الطفلة بلسان أمك؟

- لا ليست هي التي تتحدث إليك، بل أنا التي أتحدث، إني عاقلة مفكرة. إليك عني أيها الراعي فأنا أخجل أن آتي بمثل ما فعلته (تاييس) أو (فيليرا) أو (كلوي) اللواتي لم ينتظرن يوم زفافهن، بل تعلمن أسرار (آفروديت) وأخذن ينسلن أولادهن في الخفاء!... لا.. لا... لن أستسلم! في إمكانك أن تمزق قميصي فلن أستسلم إليك أيها الراعي! سأخنق نفسي بيدي هاتين قبل أن تنال مني مأرباً

- ولِمَ كل ذلك؟ بل ماذا صنعت؟ لقد لمست قميصك ولم أمزقه.. ولثمت نطاقك دون أن أفك عقدته. ليكن ما تشائين! سأتركك تذهبين حيث أردت... هيا اذهبي... اذهبي... لم لا تذهبين؟

- دعني أبكي

- لعلك تحسبين أن حبي لك قليل ضئيل حتى أسلبك من نفسك ثم أدعك تستسلمين إلى أحزانك؟ أكنت أتحدث إليك هكذا مطولاً لو أني لم أكن راغباً منك بغير ساعة من اللذة البهيمية التي تستطيع أية فتاة راعية أن تمنحني إياها؟ أما أنبأتك عيناي بما أريد؟ ولكنك لا تنظرين إليهما أبداً. . . وإنك تحجبين عينيك، وترسلين عبرتيك

- أجل. . .

- ولكن. . . لو شئت لوددت أن أقضي عند قدميك حياة مفعمة بالحب والهوى، ولغمرتك بألفاظي العذبة الناعمة، ولكنت طوقتك بذراعي هاتين، ووضعت رأسي على نهدك، وفمي على ثغرك، ولكنت أرسلت شعرك الجميل يداعبني برفق وحنان؛ ونحن نتناغى ونتبادل القبل. اصغي إلي قليلاً يا فتاتي! لو شئت لصنعت لك كوخاً من أغصان خضر مزدهرة وأعشاب طرية ملأى بالجنادب المغردة والجعلان الذهبية التي تشبه الجواهر في قيمتها!. . . في ذاك المكان تنفردين بي طوال الليالي على فراش أبيض واحد هو معطفي الممدود، وهناك يخفق قلبانا إلى جانب بعضهما إلى الأبد

- دعني أبكي أيضاً

- بعيداً عني؟

- بين ذراعيك. . . وأمام ناظريك!

- أي حبيبتي. . . إن الظلام أخذ ينتشر، وبدأ الليل يرخي سدوله، وشرع النور يتوارى في السماء كطائر مجنح لقد أصبحت الأرض بادية الظلمة. لم يعد يُرى من بعد سوى مجرى الجدول الفضي الطويل الذي يتلألأ كأنه نهر كبير من النجوم حول حقلنا. . . فيا له من نور عظيم!

- بلى إنه لعظيم. . . والآن هيا، قدني

- تعالي. . . إن الغابة التي سندخل الآن بين غصونها المتمايلة التي ستعانقنا جد عميقة، ولعله يصعب على الآلهة نفسها أن تقطعها في رائعة النهار دون أن تصاب بشيء من الرعشة والخوف.

وفي تلك الممرات الضيقة لا ترى آثار حوافر آلهة الغابات المزدوجة متقفية آثار الإلهة الغابات. وكذلك لا ترى بين الأوراق عيون آلهة الغاب الخضر، محدقة بأنظار الرجال الفزعة. ولكننا لن نخشى شيئاً ولن نفرق أبداً ما دمنا نحن الاثنين معاً: (أنت... وأنا)

- لا، لن نخاف، إني أبكي بالرغم عني، ولكني أحبك وسأذهب معك. إن في قلبي إلهاً! هيا حدثني... حدثني كثيراً... إن صوتك لينطوي على إله أيضاً!

- أرسلي شعرك الجميل حول عنقي، ولفي ذراعك حول نطاقي، وضعي وجنتيك على وجنتي. انتبهي واحذري. يوجد هنا حجارة. اخفضي بصرك... يوجد هنا جذور... الأرض ندية رطبة، والعشب تحت أقدامنا العارية. غير أني أشعر بحرارة نهدك تحت يدي

- لا تبحث عنه، إنه... صغير، إنه... فتيّ، إنه... غير جميل. في الخريف الماضي لم يكن أكبر منه ولا أنضج من يوم ولادتي. وكثيراً ما كان صديقاتي يسخرن مني بسبب ذلك. لقد بدا نموه في الربيع مع براعم الأزهار. لم يعد في طوقي مواصلة المسير

- تعالي... إننا نمشي في الظلام... في الدجنة، لم أعد أرى وجهك. لم نعد نظهر، لقد لفنا الظلام واحتوانا الليل. تعالي نذهب إلى تلك الدوحة الكبيرة، أمام أشعة القمر. إن ظلها لكبير... إنه يمتد إلى حيث نحن. هيا... تعالي!...

- إنها ضخمة... إنها في حجم قصر!

- قصر زفافك الذي يفتح أبوابه لاستقبالنا نحن الاثنين في جوف هذا الليل المقدس

- إني أسمع ضجيجاً... إنه حفيف النخيل

- تخيل حفلة الزفاف الصخَّاب

- وهذه النجوم؟

- إنها المشاعل

- وهذه الأصوات؟

- إنها الآهة

- أيها الراعي، لقد دخلت هذا المكان وأنا عذراء مثل (أرتميس)

التي يسطع علينا نورها من بعد. . . من خلال الأغصان السود، والتي قد تكون مصغية إلى حديثنا الآن. لست أدري أأحسنت في مجيئي معك إلى هذا المكان، أم لم احسن، ولكني كنت أحس أن روحاً بين جنبي تنبعث وأنا معك، روحاً قدسية بعثها صوتك في أعماقي. لقد منحتني السعادة الكاملة إذ منحتني يدك

- أيتها الفتاة. . . يا ذات العينين السوداوين، لم يَسْعَ أبوك ولا أبي إلى لمِّ شملنا وتهيئة هذه السعادة لنا، أمام مذبح مواقدهم وأنا أستبدل ثروتي بثروتك. نحن فقيران فنحن حران إذن. إذا كان أحد قد سعى إلى زواجنا في هذا المساء فارفعي عينيكِ، إنهم الأولمبيون حماة الرعاة

- أي زوجي. . . ما اسمك؟

- أركاس. . . وما اسمك؟

- مليتا.

obeikandl.com

حينما كان طيباً!. . .

هنري لفران

قالت مدام (دي برسي) وهي تحاور زوجها: (إذا كنت تبغي أن تلم بهذا الشأن، فألزم أذنك الإصغاء. . . فسرده يعوزه الهدوء ريثما آتي عليه. . .)

فنبس زوجها في لهجة فيها شيء من الجفاء: (كمشيئتك. . . أني إذن صاغ إلى حديثك!)

فعاد صوتها يرن، وقد شابه الارتجاف كأنما ينم عن نفس مضطربة، قالت: (حسن!. . . إن الحياة معك لا يمكن أن تدوم، وسأتجلد حتى الصباح. . . إنك رجل شريف، لا شك في ذلك، ولا يمكنني أن ألصق بك عيباً، فأنت لم تعمل يوماً على المخاتلة والخداع. . . أما أنا فلا أقل عنك إخلاصاً ووفاء مذ ذلك اليوم الذي وقفنا فيه أمام النفس يعقد لنا. . . ولكنا أحسسنا بعد ذلك أن مشاربنا متباينة، وإني لأعلم أن ثمة أناس لا يقلون عنا تبايناً واختلافاً. . . بيد أن حالتنا لا تطاق، فكل إيماءة مني تكدر صفاءك، وإني لموقنة أن هذا الشعور متبادل بيننا: عندما أتحدث يزعجك ذلك، وإذا ما ضحكت أنت تثير حنقي، وكذلك صمتنا يموج بالحقد والبغض. . .

هذا أمر لا يحق إغفاله، فأنت تورد ما لا أستطيعه، وإني لا أجد فيك بغيتي ومرامي، لأنك بهلق، لا تثبت لحديثي ولا تستلمح إشارتي، بل تعتقد أنني أنغص عليك عيشك في كل عمل آتيه، حتى وقع أقدامي وارتداء ثيابي! أليس هذا هو عين الحق؟ أني لألمح فيك - وأنا أتحدث الآن - نزعة إلى أن تهم بإلقائي من النافذة).

فقال زوجها في غمغمة: (حسن! ماذا أيضاً؟!)

- لقد انتهى بي الفكر إلى أنه يجب علينا أن يعيش كل منا على

حدة. . . ليس هذا بخطئي ولا بخطئك. . . أنه خطؤنا معاً. . . وعلى كل حال فهذه هي الحقيقة العارية عن كل لبس وريب، فكلانا لم يخلق لصاحبه، وربما كانت السعادة إذا ما انفصلنا. . . ليس هناك ما يمنع من انفصالنا كأصدقاء. . . فما رزقنا الله طفلا نتنازع عليه، وكل منا له دخل يغنيه عن صاحبه

- لن أنحى باللائمة عليك، فهذا هو السبيل الذي سلكه كل فرد من أفراد أهلك (آل برسي) من الأب إلى الابن، وكان والداك - كما أنبأتني - على غير وفاق، لم يفلحا في العيش معاً أكثر من أسبوعين، وهذه هي العلة في أنك الابن الوحيد لهما. . . وأخيراً يجب علينا أن نقلب أوجه الرأي في الطريق اللائق إلى الانفصال!

وكان (مسيو دي برسي) يتلقى ذلك السيل الجارف بهدوء وسكينة، ويهز كتفيه من حين إلى حين، أو يقلب شفتيه في زفرات تنم عن نفس مضطربة أو قلب مكلوم. . . راح يقطع الغرفة في خطوات واسعة، ويداه معقودتان خلفه، كما كان يفعل (نابليون بونابرت) عندما تسير الأمور بما لا يشتهي. . . وإذا ما كفت زوجته عن الحديث واجهها، وأخذ يصعد فيها طرفه في اضطراب من جرحت كبرياؤه ومست كرامته قائلا: أأفرغت جعبتك؟)

- بلى، لقد أتيت على كل ما كان يجيش في نفسي

- إذاً، كما تودين يا عزيزتي. . . أنت ترغبين في الانفصال. وسأجيبك إلى طلبتك، وسيعيش كل منا في عزلة عن الآخر - أنت حري بأن تفعل ما تراه!

- شكراً. . . ولكني أمنعك من الاتصال بغيري

- إن هذا لا يدور بخلدي. . . إذا ما انفصلنا فسأعيش لنفسي، ولن أجد في طلبة غيرك. . . لقد كنت مخلصة لك في زواجي، وسأظل على إخلاصي في عزلتي. . . أليس هذا ما ترمي إليه؟!

- لا، ليس هذا كل ما أود، فينبغي أن يعرف كلانا مصير صاحبه!

- مصير صاحبه! أننا نعلمه جيداً، راحة وهدوء، ثم طعن في العمر، وأخيراً المقبرة حيث المثوى الأخير.

- ليس هذا! دعيني أتحدث! كل منا حر في اختياره مصيره، ولكن

هناك أمر يجب ألا نغفله، فيحسن بنا أن نجعل هذا الانفصال بيننا فقط، ويخيل إلي أنك تحبذين ذلك!

- حسن، ولكن هذا السر لا يلبث أن يذاع في النهاية!

- ليس طفرة واحدة، فيخف وقعه ووطأته، ولهذا يجمل بي أن أقول: أنه ينبغي أن ندر الرماد في أعين الأصدقاء، لكي لا ندع لهم مجالا للظنة والريب، فقالت الزوجة وقد اعتصمت رأسها بين يديها: (وكيف السبيل إلى ذلك؟!)

- ما دمت قد صممت على الرحيل في الغد، فلا يحسن بك أن تذهبي إلى أصحابك وأقرانك في الريف أو في الخارج، ارحلي إلى بريطانيا، هه.. ارحلي إلى (مينو) فامكثي هناك فترة لا يحد الضجر بها إلى نفسك سبيلا... إلبثي شهرين إذا أمكنك ذلك... و(مدام بنارد) - مدبرة قصرنا الريفي الذي نشأت فيه أن خلفني والداي - ستقوم على خدمتك والعناية بأمرك ما وسعها ذلك... أرجو أن تخبريها بحضوري على الدوام

- هذا لا تفكر في أن تأتيه؟...

- بلى، ولكن يجب أن تخبريها، وهذا المكان يشيع فيه الجمال والإبداع في التنسيق على مبعدة فرسخين من (جوراند) وعاصمة (باتر)... وأعتقد أن قدميك لم تطأ هذه البقاع... مراتها مدرج طفولتي ومهد صباي... أنها تفوق بريطانيا حسناً وروعة... فلا تجعلي هذه الفرصة تمضي دون انتهازها!

- لقد حدثتني في لباقة وهدوء، وإني لا أود أن أغادر بيتك هذا على سوء... أبرق إلى (مدام بنارد)، فسأرحل إلى (مينو) وسأمكث شهرين!

- شكراً... سعدت مساء!

- لا، بل قل وداعاً... أنه فراق بيني وبينك!

ولم يرتعد صوتهما في هذا الوداع الأخير... ولكن قلبيهما... قلبيهما المعذبين... كانا يخفقان ويرددان: (أهذا حق؟! هل قطعت كل رابطة بيننا؟ أيفارق كل منا صاحبه؟ سنرى أيتها الفتاة... سنرى أيها الفتى!

أقبل شهر مايو، وهبت نسمات الربيع على الكون رخاء سجسجاً واتخذت (مدام دي برسي) أهبتها للرحيل إلى (مينو) في عدوة يوم أضحيان... والشمس تدلف في خمول، ولم نبلغ حرارتها أوجها بعد... بدا الساحل في فتنة وروعة لا تدانيها روعة... كأنه يبسم للشعاع والصبح الوليد... والأمواج تداعب بيانه في رقة وهي تتسابق إليه كالطفل يهرع متعثراً إلى ذراعي أمه... وتناثرت الحضرة في كل مكان... والرمال تبرق صفحتها كالدر المنثور. أنه لجو صحو يحلو لمن يبغي الهدوء والجمال...

قضت (مدام دي برسي) أيامها الأول في تعرف محيطها الجديد. كانت سكناها في حجرة ذات جدر مكسوة بستائر صفراء مزركشة... وتطل هذه الحجرة على مناظر رائعة... فإلى اليمين السهل الفسيح وقد تناثرت فيه الصخور والنواتئ... والشجيرات ذات العطر والبهاء، والى اليسار يبصر المرء دغلا من الأشجار (الصنوبرية) السامقة تصفر بين جذوعها الريح فكأنها عزيف الجن والأرض العراء...

أرسلت (مدام دي برسي) طرفاً شارداً إلى أمتعتها المبعثرة والى تلك الحجرة المنسقة... فراحت تفكر جاهدة في تدبير غرفتها على نسق يلذ لها أن تراه...

إن الطبيعة لتقدم إلى أولئك اللائى يجتزن - مثل (مدام دي برسي) الأزمات الزوجية أجل المنافع... فالهدوء والسكينة والطمأنينة تعيد إلى نفوسهن شيئاً من المحبة والشوق إلى أزواجهن بعد انفصالهن، وتسكن في قلوبهن ذلك الخاطر الحزين الذي طالما يطوف بهن...

جلست (مدام دي برسي) تطوف الخواطر بخيالها... وتعد الذكريات إلى نفسها... فراحت تذكر أيام الطفولة البريئة الطاهرة ولعبها العديدة، ثم عندما بدأت عيناها تنظر إلى الحياة... وأول ثوب طويل لها... وأول رقصة رقصتها... ثم عندما كانت عذراء قبل زواجها؛ وأخيراً تلك الحياة الزوجية... كانت حياتها تنساب في غير تعثر، فما كانت تحفل بالقصص والفجاءات، ولا الحزن والمرح.

. . وإنما كانت تسير سيراً عادياً تحدده عناية الله.

ومذ تسع سنوات كانت تأوي إلى مضجعها والأمل يداعب نفسها للغد القريب. . . وغابت التسع سنوات سراعاً، وهاهي ذي تعاني المرارة والألم. . . كانت تبغض زوجها وكذلك هو. وكثيراً ما كانت تبدي هذا البغض في أعمالها. . . أما هو فكان يبدي استياءه عند سيرها. . . أو ينفر من حديثها. . . بل يتبرم به. . . كانت أخلاقهما متباينة متنافرة. . .

ما كان زوجها بالرجل المرح الذي تصبو إليه النساء. . . بل كان جامداً عزوفاً عن المجتمع. . . ولكن فيه فطنة وحدة ذكاء مع سمو في الخلق وجلال في الخلال. . . ذو قلب مخلص حنون هادئ. . . بيد أنها تأبى أن تعاشره لاعتزاله المجتمع ونفوره منه، بينما كان في ريعان الحياة. . . وكانت تحس أن السعادة ستواتيها رويداً في عزلتها هذه. . .

رضيت (مدام دي برسي) بصحبة (مدام بنارد) المدبرة الكهلة التي أقامت في القصر منذ بنائه. . . وكانت موضع تبجيل الجميع. . فلم تكن بالخادمة. . . لقد ربت (مسيو دي برسي) وعنيت بنشأته. . . وما لبثت أن توثقت عروة المودة بين (مدام دي برسي) وبينها. . . لأن هذه العجوز كانت مع شعرها الأبيض وثوبها البسيط الأسود ذات روح طيبة مرحة ونفس مجربة مدبرة. . .

نهضت (مدام دي برسي) مع السيدة العجوز لتتجول في أنحاء القصر فقادتها إلى غرفة بالطابق الثالث. . . وقالت وهي تدفع بابها: (إني أرجو أن أطلعك على كل ما كان يمت إلى زوجك العزيز (مسيو دي برسي) في صباه؛ فهذه هي غرفة لعبه ونومه) وجذبت باباً لصوان عتيق مكتظ باللعب المختلفة وقالت: (هذه كانت لعبه عندما كان لا يزال دارجاً صغيراً).

ثم راحت تستعيد أغوار الماضي السحيق وتقول في صوت خفيض: (انظري، يا سيدتي. . . لقد كانت له عروس صغيرة يعبث بها ويقبلها ويقول: سيأتي اليوم الذي أتزوجك فيه يا عروستي. لقد كان على خطأ بلا شك، فعنده اليوم زوجة ما كان يخطر له

أن يقترن بها) فلم تنبس (مدام دي برسي) ببنت شفة!. . وعادت (مدام بنارد) تقول (إن هذا يثير كوامن نفسك بلا شك!) - (نعم. . . يا مدام بنارد!) فتمادت السيدة العجوز في عرض كل ما كان يخص (مسيو دي برسي) في غرفة نومه. . . وكانت كثيراً ما يتشعب بها الفكر فتذكر اسمه القديم (لويس) فتعجبت (مدام دي برسي) من جهلها بهذا الاسم مع زواجها بصاحبه. . ثم شاهدت غرفة دراسته وكتبه وكراساته، وتناولت (مدام دي برسي) إحداها من المرأة العجوز التي كانت تقول في شوق وشغف (انظري!. . كم كان خطه جميلا عندما كان صبياً. . .) وقرأت (مدام دي برسي) في إحدى الصفحات عبارة بخط كبير (أين هو الحب؟!) ثم قالت (أود أن أخرج لأتنسم الهواء، فإني اشعر بدوار. . .)

مضتا في صمت إلى الحديقة. . . وكان نسيم البحر يلطف من جوها ويصفر في أنحاء الغابة الصنوبرية. وراحت السحب تمضي على مهل في صفحة السماء. . .

بلغت المرأتان شفير بحيرة تسبح في مائها الأزرق السابي بجعتان ناصعتا البياض تسميان: (جوبتر) و (جالو). . . فغمغمت مدام بنارد قائلة: (هذه هي البحيرة التي كان يقطعها سابحاً بزورقه. . . عندما كان صبياً. . . وقد كادت أن تطويه يوماً في مائها. . . أني لأذكر هذا اليوم طيلة حياتي). . .

وأدركتا نهاية المزرعة حيث كان ثمة مقعد قديم دارس نمت عليه الحشائش وكسته الأزهار. . . قالت مدام بنارد: (هذا مقعده حيث كان يجلس للقراءة. . .)

وفي جولتهما مرتا بفسيح من الأرض الخضراء، فارتفع صوت (مدام بنارد) قائلة: هذه هي الحديقة التي كان يفضلها ويقوم فيها برياضته. . .).

وعندما مرتا باصطبل للخيل. . . علقت فيه السروج والمواتر والسموط قالت مادم بنارد: (كان يقطن هنا بونيفاك!)

- (ومن بنويفاك هذا!؟.)

- (فرسه الصغير. . .)

وتنقلا من مكان إلى آخر حتى أتمتا سياحتهما وشاهدتا صحن الدار والحدائق والأدغال والريف المحيط بالقصر والطريق وفروعه وكل ما كان يخص (لويس) من أماكن كان يرتع فيها لاعباً أو لاهياً، ويجلس فيها قارئاً أو كاتباً...

كانت آثاره في كل مكان، فما تقدمت (مدام دي برسي) خطوة حتى بصرت بأثر جديد ينم عن زوجها إبان صباه.. وقد لوحته الشمس ودرسه صرف الدهر...

فلما انقضت الجولة وآواتهما الدار من جديد.. قصدا البهو حيث جلستا في فرجة شرفة تطل على البحر بأمواجه الراقصة...

وراحت مدام بنارد تسرد قصة (مسيو دي برسي) في طفولته وصباه في لهجة صادقة مخلصة: (لعلك تدرين أن والديه كانا على قسط وافر من الغرابة... ولكنني أدرى منك بذلك... قلما اتفقا على شيء... ولم يكن أحدهما غريباً عن الآخر، ولكن أخلاقهما كانت غريبة حتى أنهما عاشا منفردين طيلة زواجهما الذي لم يجتمعا فيه إلا أياماً معدودة... فإذا حضر الوالد إلى هنا، كان على المرأة أن تغادر القصر على الفور. كان كل منهما مشغوفاً بسيدي (مسيو لويس) فهو ابنهما الوحيد... فضلا أن يدعاه هنا في كنف... فقمت أرعاه وأحدب عليه ما وسعني... فكان لي كل شيء في هذه الدنيا... وقضى والداه نحبهما وما زال في المهد صبياً.. فحزن عليهما هذا التعس الشقي وكأنه يعرفهما حق المعرفة، ولو أني قضيت لما بكي على بكاءه عليهما مع أني ربيته ورعيته

أني أحيطك علماً بذلك يا سيدتي لكي تكوني على بينة من الأمر إذا لم يكن قد أفضى إليك به... وينبغي عليك أن تشفقي عليه فهو شقي تعس، وأحياناً تضطرب أعصابه فيثور ويهيج ويخرج عن طوره وهدوئه؛ وما هذا بذنبه... ولكن يرجع إلى والديه، وإسراع المنية إليهما وهو لا يزال المهد... فلو أنه عاش في طفولة غير هذه الطفولة... لكان رجلا آخر...).

طفقت هذه الذكريات تنساب من ثغر مدام بنارد في إسهاب وإطناب... حتى أقبل المساء إلى الكون، واخذ الشفق ينشر في

الأفق رداءه الأرجواني الرائع. . . وحينئذ سألت (مدام دي برسي) عن مصباح يمزق تلك العتمة التي بدأت تثقل وتقتم. . . أما (مدام بنارد) فلم تلمح تلك الدمعات التي تألقت على وجنتي مدام دي برسي فجففتهما في سكون. . .

وأخيرا وجهت (مدام دي برسي) الحديث إلى المرأة العجوز وهي تنهض قائلة (يسرني ويبهجني ما تحدثت به عن زوجي العزيز يا مدام بنارد. . .) وضغطت على يدها في تأثر. . . فعجبت مدام بنارد لهذا التأثر، ولم يكن هذا آخر عجبا إذ أن (مدام دي برسي) بعثت معها ببرقية لترسلها من مكتب (جوراند) إلى باريس. . .

ولم تكن تدري ما احتوته هذه البرقية. . . ولكن علمت أنها وصلت باريس هذا المساء وحضر (مسيو دي برسي) في اليوم التالي.

openkandl.com

الغلاف ذو الأختام الحمر

موريس ليبلاق

في مساء اليوم الخامس والعشرين بعد وفاة (جاكيلين) أنس زوجها (جيوم) من نفسه الشجاعة على دخول غرفة تلك التي أحبها حبا شديد العمق خصب السعادة.

وكان يريد أن يتنسم على الأخص عطر الماضي بقراءة تلك الرسائل التي كتبها هو إليها في الأوقات التي كانت الحياة فيها ترغمهما على مفارقات قاسية. وكانت (جاكيلين) تحفظ كل رسائلها في علبة من الأبنوس المطعم بالصدف لا يفارقها مفتاحها أبدا. فلما فتح هذه العلبة ألفى بها عدة حزم من الرسائل مربوطة بأشرطة مختلفة الألوان، ووجد على كل جزمه علامة تميزها من غيرها وتعين عصرها، فعلى إحداها مثلا كتبت (جيوم في الجزائر) وعلى الثانية (جيوم في الجيش) وهكذا، وكانت تحت هذه الحزم كراسة معروفة تماما لجيوم، وهي نوع من اليوميات التي كانت (جاكيلين) تقيد فيها إحساسهما المشترك، ومسراتهما وأحزانهما.

غير أن جيوم حين أخرج هذه الكراسة زحزح قطعة من القطيفة كانت تغطي قاع العلبة، فلما رفع هذه القطعة دهش كل الدهش إذ ألفى تحتها غلافا أصفر مختوما بخمسة أختام حمر وكأنه يحتوي على كمية من الأوراق.

فلما نظر إلى هذا الغلاف عرف خط زوجته وقرأ عليه هذه الجملة: (يسلم بعد موتي إلى صديقتي هانريت ديسيز).

لم يتردد جيوم ثانية في فتحه، فمع أنه حميد الأخلاق إلى حد بعيد، وبرغم أنه طول حياة جاكيلين لم يفتح قط رسالة موجهة إليها فإنه بحركة فجائية وبدون تردد، وبدافع غريزة تغلبت فيه على كل شي قد فض الأختام ومزق الغلاف.

إنها رسائل، ورسائل رجل.
تناول إحداها بيد مرتعشة.
إنها تبتدئ بهذه الكلمة: (عزيزتي المعبودة...).
أدار الصفحة ونظر إلى الإمضاء فألفاه (رفائيل).

وفي الحال فهم كل شيء فقد كان (رفائيل دور ميفال) أثناء الشهور الأخيرة التي سبقت مرض (جاكيلين) يتردد على منزلهم، بل طالما دخل جيوم فألفى هذا الرجل جالسا بالقرب من زوجته، فالآن قد أدرك معنا صمتهما الذي كان يسببه لهما حضوره المضايق.

وفي هذه اللحظة كانت الساعة تدق الحادية عشر مساء، فنهض وغادر الحجرة وتناول قبعته ومعطفه وخرج إلى الطريق، فاستقل سيارة أجرة إلى نادي شارع كابوسين فصعد إليه فألفى هناك عدة مناضد مشغولة بلاعبي الورق، وفي نهاية إحدى القاعات الكبيرة كان عدد من الأشخاص يلعبون (البوكر) فوقع نظره بينهم على رفائيل دور ميفال، فاقترب جيوم من المنضدة ألقى عليها بضع قطع من الذهب ليشترك في اللعب. وبعد دقائق رأى الحاضرون بدهشة فائقة أنه بدون مبرر، أو بمبرر تافه قد أخذ يسب دور ميفال بأفضع الأساليب وفي النهاية تبادلا البطاقات واتفقا على تعيين شهود المبارزة.

وبعد ذلك عاد جيوم إلى منزله فتناول صورتي جاكيلين الفوتوغرافيتين التين كانتا تزينان موقد غرفته وألقى بهما في النار. ثم دخل حجرة الاستقبال فخلع صورتها الزيتية ومزقها وألقى بها في الناروكذلك قطعة إثر قطعة، وعلى أثر هذا نام نوما هادئا بعض الشيْ وحينما استيقظ في اليوم التالي ألفى نفسه ساكنا لأنه يخيل إليه أنه قتل تلك الميتة مرة ثانية مادام قد قتلها في نفسه نهائيا وإلى الأبد، وأن ذكريات الخيانة المرعبة لن تتسلط عليه أبدا، وأن كائنا واحدا يمكن أن يذكره بهذه الخيانة وهو رفائيل دور ميفال، وهذا الكائن سيموت ولن يبقى بعد ذلك شيْ من الماضي.

وفي الساعة العاشرة اجتمع الشهود، وفي الرابعة حدثت

المبارزة، وعندما ألفى جيوم نفسه تجاه خصمه أحس كأن الغيظ منه والحقد عليه يقفزان به، وإذ ذاك فقط تألم وعرف بحق وبهيئة عميقة أن الحياة لن تكون ممكنة بالنسبة إليه مادام هذا الرجل يحيا.

هاجمه مرتين بعنف بالغ أشده حتى اضطر الشهود إلى التفريق بينهما، وفي المهاجمة الثالثة ألقى بنفسه عليه واخترق جسمه بضربة من سيفه فهوى وأسلم الروح لساعته.

وبعد أن فارق جيوم شاهديه أخذ يتنزه في الغابة ساعة، ولم تكن أية فكرة تهيجه إذ ذاك، غاية ما في الأمر أنه كان يحس بأن عقله كثيف مظلم مختلط لا تستطيع الفكرة أن تصدر عنه، بل لم يعد يعرف هل لا يزال يتألم؟ وهل شفى غليل حقده من خصمه؟ وفي ساعة العشاء ألفى نفسه من جديد في منزله، وعلى أثر ذلك أنبأه خادمه بأن سيدة تنتظره في حجرة الاستقبال منذ ساعة على الأقل، فاتجه إليها فألفاها (هانريت ديسيز) تلك الصديقة المخلصة وكاتمة السر التي أوصت (جاكيلين) بتسليم رسائلها الغرامية إليها والتي لم يكن جيوم قد رآها منذ وفاة زوجته لأنها كانت قد سافرت في اليوم التالي، فتبادلا معاً بضع كلمات أعلنت إليه هانريت فيها أنها تصل الساعة مباشرة من الجنوب، وأنها نالت الحكم بالطلاق ضد زوجها، وأنها معتزمة الزواج على أثر مضي العدة. فقال بغير اكتراث: - آه.

وفي الحال سألته في نبرة مرتبكة قائلة:

ألم تجد بين أوراق جاكيلين حزمة لي... غلافا مختوما؟

فنظر جيوم إلى تلك الشابة نظرة شزراء وكاد يوبخها على تآمرها مع زوجته الراحلة، ولكن ما الفائدة في ذلك؟

أجابها على سؤالها بقوله:

- نعم وجدت غلافاً باسمك

- وإذاً، فأين هو؟

- قد أحرقته.

فظهرت الكآبة على وجهها وقالت:

- كيف! أحرقته! كيف! لكن لم يكن ذلك من حقك

- لم يكن ذلك من حقي!

- لا، فهذه الرسائل كانت ملكي، وجاكيلين كانت تحفظها، لتؤدي لي بذلك خدمة، ولكن كان من المفهوم أن أستعيدها في يوم أو في آخر. . . ولما رأت أن جيوم لا يظهر عليه أنه فاهم استمرت تقول في دهشة:

- آه! ألم تقل لك جاكيلين؟ مسكينة جاكيلين! أنا لم أطلب منها كتمان السر إلى هذا الحد ولا سيما ما يتعلق بك

فقال في رعدة وفزع: - ماذا؟ ماذا؟

نعم لما كنت منتظرة الطلاق فقد كنت أخشى أن تكتشف هذه الرسائل عندي، وكنت أحتفظ بها إلى حد يمنعني من إبادتها! وقد كانت جاكيلين وحدها هي التي تستطيع أن تحفظها لي ما دامت تعرف سر حياتي.

- أي سر؟. تمتم جيوم بهذا السؤال فأجابته قائلة:

- آه! أنت لا تعرف، فأنا أحب أحد الناس... هو أحد أصدقاؤك، وكان يتردد كثيرا على منزلك. . .

فتمالك جيوم قواه وسألها قائلا:

- أهو رفائيل دور ميفال؟.

فأجابته الشابة وفي قلبها ذلك الاسترواح الذي يشعر به المحب حينما يذكر اسم محبوبه قائلة:

- نعم، نعم هو رفائيل. يجب أن نتزوج، وسأراه بعد قليل.

نطقت بهذه الكلمات وهي واقفة تستعد للخروج، وكان وجهها جميلا سعيدا يتلألأ بكل ما لديها من سرور وكانت عيناها تبتسمان، وكانتا مبللتين قليلاً كأن الهناء قد ألانهما.

- ففأفأ وتمتم قائلا: - أنت ذاهبة. . . أنت ذاهبة. . .

- نعم أنا ذاهبة إلى منزله. . . إنه لا يتوقع مجيئي إلا غدا.

- أية مفاجأة! لهذا كنت أسر لو حصلت على رسائله لأننا كنا نعتزم أن نقرأها معاً على أثر نيلنا حريتنا.

- اسمعي. . . اسمعي. . .

كان جيوم إذ ذاك يشعر أنه صار مجنونا، إذ فهم أن شيئا هائلاً وفظيعا قد وقع، شيئا سيترك له ذكرى أكثر إرعابا وتعذيبا من موت زوجته نفسها، وكان يود أن يهيئ هذه السيدة لوقع ذلك النبأ المؤلم، ولكنه لم يكن يعرف ماذا يقول فقد رفضت شفتاه النطق بتلك الكلمات المروعة، وجعل ينظر إليها مضطربا كما ينظر الإنسان إلى أولئك الذين أصيبوا بكوارث تتجاوز القوى البشرية. وبدون أن ينبس بكلمة، وبدون أية إشارة، وفي رعشة الخوف والغم والقلق تركها تخرج.

obeikandl.com

obeikandl.com

قبلة الملكة

ج هـ روسني

هذه هي عشر سنوات، وأنا راسخ الجذر في هذا المكان البائس (ل) مقيم في هذا المنفى لا أريمه.

ومع ذاك، فكل الناس كانوا يحسبون حساباً لمواهبي وخصالي، وكلهم كان يقدر أني سأبلغ أرقى المناصب، وأنال أرفع الوظائف التي لا تطاولها إلا رتبة الملك حتى أشد أعدائي، وشر خصومي كانوا لا يغمطون مؤهلاتي. ولكن هذا كله وا لهفتاى، لم ينجني من الحكم على بالتعفن في هذا الجحر الضيق الذي يسمونه (ل) ولذلك قصة عجيبة عالمية، تتلخص في أن امرأة كانت سبب نكبتي، وهذه المرأة هي الملكة.

لقد كنت في التاسعة عشرة من عمري، في فتوة ساخرة. وكان من عادتي، أن أغازل عرائس أحلامي، ما بعد الظهر من كل يوم، في حديقة الملك الوسيعة الملتفة الأدغال، تحت الجبال الشامخة. مشيت في ذلك اليوم طويلا، تحت ظلال الزيزفون التي كانت تنمو في أرض تغذيها سواق عذبة صافية، وتحوطها مروج من الأعشاب السندسية الخضلة الندية، تعزلها عن أشجار الغابة وأدواحها. وانتهى بي السير، إلى بساط من الأرض مفروش بأشجار من الحور، كانت ذوائبها تتراقص وتنثني الواحدة نحو الأخرى. وهناك بين تلك النهيرات، كان نهير، يفترش ماؤه فيتحرك إلى بحيرة صغيرة، تحفها شجيرات من قصب الخيزران المزهرة.

كانت أشباح الغموض والسكون، تخيم على تلك البقعة الموحشة، إلا ما كان من خرير ماء النهر وهو يجري في الأعماق، أو التماع قصور من غيوم السماء كانت ترتسم على مخرفة من أشجار الأرز.

وفي هذا المكان جلست غارقاً في لجة من الأحلام والأخيلة بدأت مشاعري تطغى على وتنتشر في ذهني، فرحت أمتع النفس والحواس، بصفاء هذه النزهة. وأنا متخل بروعة الأصيل، غارق في سحره الجميل. ولكن قلقاً مباغتاً، انبثق في نفسي فجأة سمعت على أثره لصدري خفقاناً طغى على هدير النهر خفقة مجذاف كأنها تبرر لي هذا الاضطراب والارتعاد فلم ألبث أن تواريت فزعاً مضطرباً خلال دغلة من الدغلات. وانقطعت خفقة المجذاف على الماء. فعاد السكون والغموض، يجثمان على المكان وروعة أشعة الأصيل، تسترسل من خلل الغصون فتلمحت على ضوء شعاع متسلسل بين فجوات الأوراق، بطة لماعة تمخر الماء ثم تلتها أخرى ذات طوق نحاسي وتغريد حلو. ثم أخذت تتعالى مجدداً، خفقات المجذاف وبعدها ارتسم أمامي على عطفه الشاطئ مقدم زورق للصيد، نهضت فوقه، فتاة رائعة الجمال، تتوهج على يديها أشعة من دماء صيدها للطيور. كان في عينيها نفاذ وحدة وعلى فمها فتة سماوية وكانت يداها البضتان، تحركان المجذاف في مشقة وإعياء بينما رغاء الزبد يتفجر كقطع الثلج أو تثار اللؤلؤ. خلف الزورق السحري. أما أنا فقد اهتزكياني من الحنان والأسف، وانثالت على لساني الدعوات.

وبالغت في التستروالتواري. وقد كتمت أنفاسي وكاد الاضطراب يبلغ بي درجة الإغماء. ذلك إنها إنما كانت هي. . . هي الملكة التي كنت أهيم بها في الخفاء، والتي ما زالت منذ بعد هذه الظهيرة أحلم بها الأحلام السعيدة البهيجة أثناء نزهتي.

وكان في نهاية الزورق، صبي منتصب، هو الأمير الجميل د هـ ت أبن أخت الملكة.

كان ممسكا بسكان الزورق، بينما خالته الملكة سابحة في أجواء أحلامها وقد مال عنقها الذي يشبه عنق الإوزة إلى الجانب، وامتدت ذراعاها الناعمتان الحريريتان إلى الأمام. كانت تجذف على ضوء الأصيل الأصفر إيه يا إلهة الملاحة، يا لك من حلم عجيب وسمعت فجأاااأة صرخة داوية، ثم أبصرت بالزورق

يتقلب على الماء والأمير الصغير يسقط في النهر في حين تعلقت فيه الملكة الملتاعة الجزعة بغصن غليظ من أغصان الحور.

ووثبت إلى الماء بقفزة، وقبضت على الغلام الذي كاد ينجرف مع التيار، فوضعته على الشاطئ الأمين، ثم جدفت بالزورق نحو الملكة. لقد لمست ذراعاي جسمها الذي خلق فقط لكي يضمه أبناء الملوك. أما هي فقد كانت شاحبة الوجه مرتجفة الأوصال. لم تنطق أولا بحرف، وإنما لبثت ترمقني بعينيها الساحرتين المفزعتين غير إنها حين أحست بنفسها منتصبة على قديمها فوق الشاطئ، قذفت بنفسها هلعة فزعة على الأمير الصغير المسكين، الذي كاد يغمى عليه من روعة الحادث. ثم عانقته بحنان حافل فزع، وقالت لي: إنه مدين لك بحياته فاطلب مني ما شئت تلقني أول المليبات. فصحت: أتعطيني كل شئ؟ ثم عراني اضطراب وحشي ثائر، وماد بأعطافي جنون مضطرب جياش. أما هي فقد شدهت لصرختي وجعلت لحاظها تتلاقى مع لحاظي. ثم أسلبت أجفانها حياء وتضرج وجهها بحمرة الخجل.

لقد كنت كما أسلفت، في ريعان الصبى، ولي محيا فنان الملامح، وكانت الملكة تعرفني جيداً، لأنها طالما أبصرت نظراتي تتعلق بمفاتنها. وعلى هذا فقد فهمتني. ولحظت أنا في نظراتها الثابتة في، شيئاً من ارتجاف جعلني أكثر جنوناً بها، وأشد نشوة وتلذذاً بفتنتها النبيلة ودمها الملوكي. ثم أخذني ميل لذيذ مشتعل لانتهاك حرمة هذا الجمال الملوكي، فظلت مرتجفاً هلوعاً. ثم استأنفت قولي: أتقولين إنك تمنحيني كل شئ، دون أن ترجعي عن كلمتك؟... فأشارت برأسها بالإيجاب ثم أصطبغ محياها بدم الخفر. واستقلتها حمياً من النشوة. وقلت لها، أرغب منك قبلة. فأجابتني بلهجة العاتب. أي جنون هذا؟. لعمري أن صغر سنك وحده. هو الذي يبرر هذه الإباحة الفاجرة. ولكنها في الحق، كانت تشاطرني اضطرابي وتقاسمني شعوري: إذ راحت تتمعن في جسمي الذي التصق عليه ملابسي المبللة، وتنظر إلى نظرات مبهمة غريبة. وعندئذ، بلغت بي الجرأة حداً كنت بعده موطناً العزم على عدم

النكوص ولو أمام خشبة المشنقة. . وهتفت بها مجدداً: اذكري أنك قطعت على نفسك عهداً. . وقبل أن تتمكن من الدفاع عن نفسها، تقدمت إليها في جرأة، وأمسكت برأسها الملائكي بني كفي ثم أهويت بفمي الحران اللهفان إلى فمها وحينئذ. . وبعد قبلتي المديدة العميقة شعرت بشفتيها الشهيتين الحلوتين، تجيبان قبلتي فجأة، وتنحنيان على شفتي بلثمات عنيفة حارة ضاغطة. لم يدوم ذلك إلا كلمحة البرق، ولكن هذه الحظة على قصرها، كانت من النفاذ والتأثير في مشاعري وحواسي، بحيث أن فمي لن ينسى أبداً لذاذة هذه القبلة. وحين دفعتني الملكة أخيراً عن نفسها، كان أحد نبلاء الحاشية يتقدم نحونا تحت ظلال الحور. . .

نمى الخبر إلى الملك، فعرف كل شئ، وتحتم على الملكة أن تفسر له جلية الخبر. ومع إنها على التحقيق، قد أسقطت من فضيحتها (اشتراكها الآثم لحظة مبادلتي القبلة) إلا أن ذلك، لم يقلل من عزم الملك على نفي وتشريدي.

لم أكن أملك ثروة، وكانت رسائل مرتزقي متعلقة كلها بأسباب الملك، الذي قضى بنفيي، فأبحربي إلى هذا المكان (ل) الذي شغلت فيه أول وظيفة (سكرتير) ثم وظيفة قنصل.

إن الملك رجل حقود، لا يعفو عن زلة فلست آمل أن نغفر لي جريمتي مطلقاً. وعلى هذا، فقد قضى على أن أدفن في هذا المكان أن لم ينقذني موت حاكمي وسيدي الملك.

إنه ليعروني الندم في بعض الأحيان، فآخذ نفسي باللوم الشديد على ما ورطني فيه جنوني. ولكن تأتيني هنيهات، أشعر فيها بشفتي الملكة كأنها حاضرة تنطبع على فمي وحينئذ لا آسف على شئ في الوجود.

لقد حدث لي مايلي خاصة في أمسية عيد الصعود وذلك إني في ذاك اليوم، تلقيت من العاصمة التي فيها الملكة، هدية غصناً رطباً مزهراً من أغصان الخيزران (ذلك النبات الذي كان يحف بالبحيرة التي أنقذت من مائها الملكة) فعرفت أن هناك شخصاً حبيباً لم ينسى بعد. . . واختلجت لهذه الذكرى شفتاي اختلاجة الوله والمرارة. . .

اشترك في الجريمة

بول بورجيه

. . . قابلت. . إدم ريمون - على إفريز محطة ميلان بينا كنت أصعد في أحد هذه القطارات التي يصفها الإيطاليون في زهو (بالبرق) مع إنك تجد نفسك متأخراً ساعتين في مسافة قدر زمانها خمس ساعات. . . وكيف تحرن؟ إنك إن شكوت أجابوك وقد جرت على شفاهم ابتسامة آسرة قائلين. (إنه القدر الإيطالي) أيسخرون من أنفسهم أم يسخرون منك. . وإنك لتغفر (للبرق) هذا الوقوف الذي لا يكاد ينتهي عند كل محطة انتظارا للبريد الذي لا يصل أبداً. . . ومرة أخرى فيم الحزن إذا كان كل الناس يحضرون ليشاهدوا (لويعي دي لا بريرا) الإلهية. . . وإذا كانوا يتهيئون من غدهم لزيارة. . . (القصر الأحمر) و (القصر الأبيض) في جنوا. . .

وكانت جنوا وجهتي حينما التقيت بادم ريمون وكان ماضياً إليها أيضاً!. . . وسألني قائلا:

- أتريد أن نقطع رحلة سوياً؟

أجبته وأنا ادفعه في رفق أمامي إلى الصالون:

- بكل سرور. . .

ولم أكن مخلصاً في قولتي هذه. . . وما ذاك لأن طبع ريمون يباين طبعي. . . فهو شاب لطيف للغاية وإن كان متكلماً هوناً ما وهو رفيق صادق الود فما كان يربطنا في صداقتنا التي أوفت على العشرين عاماً سوى أنبل الصلات وأطيبها. . وهو بعيد الأفق غزير العلم. . جم الثقافة. . . سمحت له ثروته بالتنقل والسفر. . . ولكنه إلى ذلك. . . كان ثرثارا. . . وإننا لندرك بدهياً آراء هذا النمط من الناس. . . في الأشياء التي هي مدار الحديث في الصالونات المنتشرة حول قوس النصر. .

وبالأمس أطروا قصصي تولستوي وأينزيو. . . واليوم يشهرون نحت (دودان) وتصاوير بزنار. . وغداً من يدري؟. ولكنني عرفت منذ عهد بعيد كيف أميز في ثرثرات هذا الطراز من الناس الآراء التي ليست سوى الصدى الحاكي لآراء الغير. . . والقصص التي يمكن أن تكون أصيلة. وقد مضى على قصة من هذا القبل الأخير. . . أريد أن أقصها بدوري. . وهي تنتمي إلى مجموعة (حالات الضمير). . وطبقا لما قرر باسكال (إن لذة الحياة في هذه الوخزات وفي التماس الحلول لها. . .

قص على رفيقي هذه القصة. . . وقطارنا يقطع الطريق من (نوفي) إلى (سامبرد أرينا) وكنا قد تناقلنا طائفة من الآراء عندما بدهني بهذا السؤال:

- أين تقيم في جنوا؟

فعينت له فندقاً في ظاهر المدينة كنت أوثره على غيره لحديقته الرجيبة. . . أجابني بقوله:

- لسوف نفترق إذن. . . فإن هذا الفندق يرتبط في ذهني بذكرى مؤلمة جداً. . . وإني ليتلبسني اعتقاد باطل عسى بأن يجعلني أعزف عن الأماكن التي وقع فيها حادث مؤلم. . . حادث؟. . . إن الكلمة ضخمة. . . ومع هذا؟. . .

وانقضت فترة ثم استتلى:

أود أن أعرف ماذا كنت خليقا أن تصنع لو أنك كنت في مكاني؟. . . وسأتبدل بالأسماء الأصلية أسماء من عندي. . . هذا فضلا عن أنك لا تعرف أصلا أصحابها.!

. . . وأنشأ يسرد عليّ قصته فقال:

- كان ذلك منذ خمس سنوات. . . في زورتي الأولى لجنوا. . . وكنت حللت بهذا الفندق لنفس السبب الذي يدعوك إلى النزول فيه. وكنت قد زرت في نهاري القصور والكنائس وكل ما هو جدير بالزيارة في جنوا. . . وفي المساء بينما كنت جالساً في إحدى خمائل الفندق المذكور أقيد ملاحظاتي على انفعالاتي في يومي. . . إذ أرعدتني جلجلة صوت على قيد خطوات مني صادرة من الممشى

الذي كانت تفصلني عنه شجرة فرعاء. . .

كانت ثمة امرأة تتكلم. . . حادسة أنه ليس من ينصت إليها. . . وكان ثمة رجل يمشي إلى جوارها.

وكانت العبارة التي انفرجت عنها شفتاها جداً مبتذلة توحي بأنها في ميعه الصبا وغضارة الشباب قالت:

- آه يا حبيبي العزيز. . . لم أكن أحلم بهذا. . . أن أكون هنا معك. . . أمام هذا البحر. .

وتحت هذه السماء. . . وهذه الساعات اللطيفة في انتظارنا. . ثماني عشرة ساعة إذا استقل القطار عند الظهيرة!

أجابها قائلا:

- وكذلك أنا. . . لم أكن آما أن تعدي حرة طليقة. . . ولكن فلنتنقل. . . ولنعد إلى الفندق. . . فالجناح أمين. . . ولست آمل أن يقابلنا هنا أحد!. . .

تساءلت قائلة:

- ومن إذن؟. . . أنه لأمر جميل للغاية أن أستأنف هذا الهواء. . . وأني أشهد غروب الشمس معك

قال:

- إنني أوثر مع ذلك أن أنفذ للفور فكرتي. . . وأن أتحقق من ثبت النزلاء حالما أصل إلى الفندق.

قالت في نبرة يكسوها العتاب الرقيق:

- أتأسف أن أنتهب هذه الدقائق الخمس. . . أوه. . . لو أنك خليص في حبك لي. . . لما تعلقت هكذا

قال ولكن يا حبيبي أنه من جراك أن أتحامى المضايقات بأي ثمن!.

تأوهت قائلة: ليكن ما يكون. . . سأكون جداً سعيدة حتى ليتساوى عندي كل شيء. . . أتسمع. . . كل شيء. . .

. . . وجازا بي دون أن يثبتاني. . . والآن لتحكم على طبيعة انفعالي ومداه. إذ عرفت في هذه العاشقة الهلوك - التي لم تقو على أن تتمالك نفسها من أن تصيت هكذا بسعادتها - زوج صديق من

أعز أصدقائي على نفسي. . . وأقربهم إلى قلبي. . . وسأدعوه لسياق قصتي (شارل روتيه) وسأدعو زوجه (مرجريت) أما الشريك في هذه المقابلة التي نمت في هذا الفندق السادر في جنوا فكان مجهولا لي!.

ولتعلم كذلك أنني كنت ذهبت في صبيحة هذا اليوم إلى دار البريد طلباً لبريدي. . . فألفيت هناك رسالة من روتيه نفسها عليها خاتم بريد باريس - وذكر لي روتيه في رسالته أن ابنة عم لزوجه دعتها إلى رحلة قصير غايتها خمسة عشر يوماً تقضيها ترويحاً عن النفس في فلورنسا وروما. . . وسمى لي إبنة العم هذه عرفاناً بالصنيع الجميل والسرور الذي أدخلته إلى قلب عزيزته مرجريت

. . . ولم يكن آل روتيه من السراة. . . بل كان شارل في مستهل حياته العملية كمحام. . . وقد أحرز نجاحاً. . . وأصاب صيتاً منذ عهد غير بعيد. . . وكانت إبنة العم على النقيض من ذلك. . . كانت تحصل على ربح يقدر بمائة ألف فرنك عرفت ذلك لأنني شهدت زواج شارك بوصفي شاهداً ثانيا. . . وكانت ابنة العم هذه هي نفسها التي منحتها في موكب الزفاف زراعي. . . مضى على ذلك الآن خمس سنوات. . . خمس سنوات صغيرة!. . .

. . . وكان العشيقان قد آبا منذ حين إلى فندق. . . ولا جرم أنها تناولا سوياً طعام العشاء في هذه المؤانسة الخطرة المسكرة. . .

ولو لم يكن روتيه صديقي الحميم لاستشعرت له الصخرية بديلا من الحزن. . . إذ أذكر الانهيار المريع لهذا الزوج البكر. . . على أن مجرد المفارقة بين مراسيم الزواج التي طافت ذكراها بذهني. وبين هذه المقابلة أفعمت نفسي بمرارة فذة! ولكن روتيه كان صديقي. . . وكان مسهبا بهذه السيدة التي بنت به على معارضة هينة من ذويها. . . وكنت أعرف أنه يكد ويكدح من أجلها. . . ومن أجل إسعادها. . . وأنه بعد إذ لم تنجب له طفلا بات ينتظره مقدمه في شغف وتطلع. . . تدبر هذا كله. . . تلم بالحصر والضيق اللذين دفع بي إليهما هذا الاكتشاف الفجائي!. . .

كانت هذه المرأة الزنبة تخون صديقي. . . فكم من الوقت استغرقته هذه الخيانة؟. . . وفي أي مكان التقت بهذا الفتى الذي

لم أذكر أبداً أنني أثبته لديهم؟. وما الدور الذي لعبته ابنة العم؟. أكانت على اتفاق مع مرجريت أم أن هذه الأخيرة عرفت كيف تجد الوسيلة إلى مغافلتها كما غافلت شارل؟. وهل كان هذا هو اللقاء الأول للعاشقين أم قد سبقته لقاءات؟. ومن يدرينا أن هذا الطفل الذي كان صديقي يرقب بانفعال الأبوة الملهوفة مقدمه لم تتكون جرثومته هنا. في هذا الفندق أراه من خلل الأشجار الباسقة؟

فرضت هذه الأسئلة نفسها جملة على نفسي وتركزت في السؤال التالي؟.

- ما هو واجبي؟.

هناك حكمة هندية تعرفها أنت كما أعرفها أنا. . . تقول (لا ينبغي ألا تضرب المرأة ولا بزهرة). وفكرة البطولة التي تحويها الحكمة مطبوعة في أعمق كياننا بفضل وراثة عريقة. . . ومتأثراً بهذه الحكمة الغالية تساءلت قائلا:

- أواجبي أن أصمت. . . أن أصمت؟. . .

. . . وفي تأملاتي المطرقة رأيت شارل روتيه كما رأيته دواماً مذنبي بمرجريت. . . منحنياً فوق أكداس القضايا. . . فيتلقاني في مكتبه بهذه الكلمات. . .

- لقد تضاعف عملي فما أستطيع أن أنهض لمصافحتك. . . وتضاعفت كذلك ثروتنا الضيئلة. . . فقط لو كان ثمة في تبذل من أجله هذه الجهود. . .

ثم يبدي لي صفحة. . . غضتها التعب والأين وقد شاعت فيها ابتسامة سعيدة!. . .

هكذا بينا كان يجهد نفسه ويبهظ أعصابه في العمل ليحقق الترف لزوجه كانت هذه تعبث مع سواه!.

وتبدد النقود في الأصباغ لتتراءى جميلة في عين آخر!. هذه النقود التي اكتسبها بالعرق زوجها الكادح!. وأنا بعد الذي سمعته هل أسمح أن يستمر استغلال امرأة عابثة لهذا الزوج الشريف النبيل.؟. . . أأصمت. لئن فعلت ذلك لعد أشتراكاً في الجريمة!. وانثالت دفعة واحدة على ذهني ذكريات صداقتي الطويلة لشارل

منذ إن كان صبياً في العاشرة إلى أن تخرجنا سوياً في كلية الحقوق!. هذه الزمالة والأخوة اللتان تربوان على ربع قرن ثارتا في كياني ضد هذا التواطؤ في الصمت لأنالصمت. . . معناه مساهمة في الجريمة. . . إذا ماذا لو علم شارل بخيانة مرجريت ثم أنبأني بهذه الخيانة؟ هل أجيبه إذ ذاك بقولي:

- إني أعرف كل شيء. . .! وإذا كان هو جوابي. . . أما يغضب مني لأني لم أنبهه. . . أنبهه؟. . . أأشي بامرأة. . . أهذا ممكن؟. . .

وبدا لي أن أكتب لصديقي. . . ولكن يتحطم القلم خير من أن يخط قصة خيانة الزوجة. . .؟ ولكن شعوري بأن الخيانة وقد كانت على قيد خطوات مني!. . . وفي اللحظة ذاتها التي كانت فيها مرجريت بين ذراعي عشيقها. . . ربما في حجرة مجاورة لحجرتي أضاف هذا إلى العراك الخلفي المحتدم في نفسي رعباً جثمانياً أوفى في على العذاب!. . .

وفي الصباح كان قد استقر رأيي على الصمت. . .! ولن أشي بمرجريت ولم يعلم شارك شيئاً وسوف لا يكون في ذلك أول الأزواج المخدعون ولا آخرهم. . . إنه يتعبدها حباً ومعنى اطلاعي إياه على فاحشتها أنني أضع في قبضته سلاح الانتحارفالخيرإذن في أن يظل جاهلا كل شيء. . . أما عن نفسي فقد أملت أن أنسى هذا الاكتشاف الذي ساقه إلى الاتفاق العجيب!. . . إن مرجريت روتيه لم ترني وهي تجهل أنني أعلم سرها وسوف تظل على جهلها أبداً.! وطبقاً لما قالته في ممشى الحديقة فإنها ستستقل قطار الظهروإذ كان مفروضاً أن أستقل بدوري قطاراً في اتجاه مضاد فيما يقرب من موعد سفرها فقد أجمعت أمري على أن أرجئ رحيلي حتى لا أخاطر بمقابلتها. . .؟

غادرت الفندق في وقت مبكر جداً بعد هذه الليلة التي قضيتها وأنا مسهد أرق وقد حزمت رأيي على ألا أعود إلا في ساعة متأخرة عندما تكون مرجريت قد زايلت الفندق إلى المحطة ذلك أني آثرت ألا أراها!. وبعد أن مضيت على وجهي في طرقات المدينة دون قصد أو غاية أفضي بي المسير إلى (القصر الأحمر) فرأيت أن ألجه لأرى

من جديد صور (فان ديك). . . ولك أن تحكم على انفعالي إذ تهادى إلى أذني من جديد في إحدى القاعات الهائلة لهذا المتحف المهجور الصوت الذي أقلقني أمس تحت أشجار الحديقة. . . كانت مرجريت هناك. . . وكانت تسأل فيجيبها صوت عرفت فيه صوت رفيق الليلة الماضية. . . وكنت لحظتئذ أتأمل صورة المركيزة باولا الشهيرة. وأحسست بهما يتهامسان. . . وفجأة سمعت وشوشة أعقبها تغيير في لهجة الخطاب ومجرى الحديث!. ذلك أن مرجريت رأتني وعرفتني. . . وليس شك في أنها أسرت لعاشقها هذه الكلمات:

- صديق لزوجي!

أكان ينبغي أن أعود أم كان ينبغي أن أحييها فأهبها بذلك فرصة تلمس المعاذير؟ وهنا أيضاً نزلت عند حكم السداد والحجا فتظاهرت بأني لم أحس وجودهما. وتلومت أتأمل الصورة وظهري إليهما. . . وبعد فقد انساب إلى صوت السيدة التعسة وهي تعلق على الصورة بكلام قصد إيهامي بأنها التقت بصاحبها في المتحف عرضاً. . . ثم كان أن زايد المكان سريعاً ورفيقها في إثرها!

وحاصل القول فإنني حينما تناءت عني خطوات مدام روتيه وخطوات صاحبها وشرعت أدرج في الطريق، رأيتني أقع فريسة لحالة وخز ضمير أتجاوز عن وصفها!. ذلك أنني بتظاهري أني لم أر مرجريت أتحت لها أن تعلم كما لو كنت قد وجهت إليها القول صريحاً أنني أعتبرها مذنبة. وليس شك في أن أول عمل قام به الفتى عند عودته إلى الفندق أن راجع ثبت النزلاء واستجلى فيه اسمي عندئذ أدركا الحقيقة أدركا أنني لا مشاحة رأيتهما وهما يطرقن ممشى حديقة الفندق، ولهذا السبب فإنني لم أبد دهشة ما عندما رأيتها في دهليز (القصر الأحمر). . . أدركت زوجة شارل أنني عرفت لها خليلا. . . ولذلك فقد عراني رعب المشاركة في الجرم! على أنني لو كنت تقدمت منها وقلت:

أهذا أنت يا سيدتي؟. . . لقدمت إلى رفيقها زاعمة أنها ألقت إتقافاً به في جنوا ولكتبت إلى زوجها كما قد تظنني فاعلا!: ولكن الموقف يختلف الآن. . . إذ يبقى عليها أن تصمت تجاه شارل حتى

لا يتعارض موقفها مع موقفي!.

وكان من أثر هذا الموقف أني بقيت أسبوعين دون أن أطلب من شارل أخباره أو أكتب له بأخباري وتلبثت كذلك أسبوعين عند عودتي إلى باريس فلم أقم بزيارته. . . وقد أدركت أن جفوتي هذه كانت عملا غير صواب كسلوكي في دهليز. القصر الأحمر)!

وفي يوم. بينما كنت في المنزل وحدي إذ أنباني خادم بأن سيدة تطلب مقابلتي فأذنت له باستقبالها. إذ ذاك اجتليت مرجريت روتيه بعينها تدلف إلى غرفة الاستقبال وبادرتني بقولها. لقد ضعت!

وأردفت فجأة كمعتوهة!

- إن الصدفة وضعت سري بين يديك فلم توش بي لدى شارل. . . وأعرف أنك صدفت عن زيارتنا لهذا السبب أيضا. . . ولكنك تحمل بين جنبك قلبا كبيرا وستشفق على إنسانة تعسة أكرر لك أني ضعت.

وهكذا لم تعد بعد المشاركة السالبة في الجرم ما تطلبه الشقية مني. . . بل هي المشاركة الموجبة وكانت قد عادت من إيطاليا منذ أيام ثلاثة فحسب. . . وبآيات بينات أدركت أنها حامل لشهرها وينبغي أن أضيف إلى ما سلف أنها اعترفت لي أيضاً وهي تنشج بأنها منذ ظفرت بخليل وهي تتعلل باعتلال الصحة لتعيش بمنأى عن بعلها. وإذ أنذرتها هذه الأمومة بالخطر الداهم وكنت ثمة أنا الصديق الحميم الذي أكاد أن أكون لزوجها أخا لأقص ما شهدته عيناي وما سمعته أذناي فقد فكرت في الفرار مع حبيبها ثم عدلت به إلى الانتحار.

ولكن غريزة حب البقاء أطاحت بهذه الحافزة. وأخيرا لاذت بي في ارتباكها لأنني كنت محيطاً بسرها. وكما قالت لي لتتوسل بشفقتي إلى. إلى ماذا؟. آه. . . لقد رأيت إذ ذاك كم هو هش ورقيق وهو هش ورقيق هذا الحاجز الذي يفصلنا عن الجريمة! لقد فزعت إلى لأصحبها إلى طبيب لتسأله ماذا أيضا؟ مساعدة أثيمة ليوقف هذا الحم المفضوح.

أفي حاجة آنت لأن أقول كل بماذا أجبتها؟ لقد ضرعت إليها أن تعيش وألا تتعدى لا على أيامها. ولا على أيام الجنين الذي تحمله في أحشائها. . . وقلت لها في إصرار وعزم:

- أولى لك أن تعترفي لشارل بكل شيء. . . إنك لا محالة مثرية عنه وسيكون لديك ثروتك. . . وابنك ولن تعدمي سبيلا للطلاق وسوف تتخلى عنك هذه الوساوس الأبدية التي تلازمك كقاتلة. وأية قاتلة! وخرجت بعد أن أقسمت لي أنها لن تقدم لا على الانتحار ولا على الإجهاض.

وفي اليوم التالي كان قد تبدد من نفس كل تردد أقعدني عن العودة إلى زيارة شارل. وألفيتني لديه في الساعة العاشرة. وقد برهن لي احتفاؤه السعيد بي على أنه يرتاب في شيء من المأساة التي كان بيته مسرحها. وفي المساء تناولت لديه طعام العشاء إلى جانب الزوجة التي أعادت إلى ذكريات ذلك اليوم المشئوم.

ودرج شهر آخر. . . وقال لي شارل بينما كنت أتناول العشاء لديه.

- إنني جد سعيد يا صديقي. . . إن حلمي القديم بسبيل أن يتحقق. . . وأملي كبير في أن أغدو أبا. . . وستكون أنت الإشبين.

وفي أقل من ثمانية أشهر كانت مرجريت قد وضعت له طفلا وقد أعلن له الوالد المزعوم الكارثة بزهو قائلا:

- أجل يا صديقي. لقد قبل الموعد المألوف. . . في سبعة اشهر ونصف، أنه لأمر عجيب. . . وقد ساورني الخوف والقلق. . . ولكن الطبيب طمأنني وقد ظفرت مرجريت بعنوانه من قبيل الصدفة من إحدى صاحباتها عند عودتها من إيطاليا! بيني وبينك. . . لقد قاست طويلا وفقدت الأمل في أن أغدو أبا. . . مرة أخرى. . . أنا جد سعيد!!

وإذ كان يتحدث إلى. . . كنت أشعر بالخور والخزي فقد أيقنت أن مرجريت روتيه حالما خرجت من عندي مضت إلى أحد الأطباء وحدثته برغبتها في الإجهاض، فنصحها بأن تعود إلى زوجها. . . وتغريه! حتى إذا اقترب موعد الوضع أقنعته بقبول هذا التبكير

فيه. . . وبعد فإن هذا أمر محتمل!

أكنت مصيباً أم مخطئاً أنني عدوت وجه الصواب في تراخي عن الحديث؟ أكنت مصيباً أم مخطئاً في صمتي الآن؟ أكنت مصيباً أم مخطئاً عندما أمسكت الطفل على جرن المعمودية. . . هذا الطفل الذي كنت أعلم حقيقة أبوته؟

. . . ومهما يكن من شيء فقد وجدت أمه في اقل من ستة أشهر من مولده الوسيلة للإيقاع بيني وبين شارل. . . ولم أحاول من جانبي أن أحول دون هذه الوقيعة لأن اختلافي إلى هذا المنزل كان قد غدا أمراً شاقاً على نفسي!

وأظنك عرفت الآن لم لن أرافقك إلى فندق (. .) في جنوا. . .

أينبغي أن أعترف بدوري بأنني مشاركة مني في عواطفي لأدم ريمون لم أنزل هذه المرأة في فندق (. .). . وطالما سألت نفسي ماذا كان ينبغي أن يكون سلوكي فيما لو كنت في مكانه كما طلب مني.؟ إن هذا الصمت بالقياس إلى صديق حميم لهو جريمة. . . والكلام أمر بالغ القساوة. . . هو هذا البرهان على أنه ينبغي دائماً أن نتجاهل بعض الأسرار! فإن ارشد جانب في الحياة أن يغمض الإنسان عينيه. . ويصم أذنيه حتى لا يدرك أخطاء الغير. . . هذه هي الطريقة الوحيدة كيما نعيش في الحياة نقيين وهي ليست بالطريقة السهلة دائما. . .

اليتيم

فرانسوا كوبيه

. . . غامت الدنيا في عينيه. . واكتفت سحب الشقاء حياته. وضاقت دائرة وضاقت دائرة عيشه حتى كاد أن يهجر حياته. . وينتقل إلى حياة ثانية سعيدة هانئة أبدية. . شأن كل شخص يكرس وقته ويضحي بهجة عمره. . في سبيل وضع قصص وتأليف روايات. . حيث يعصر كل ما لديه من موهبة وعزيمة يقدمه إلى الجمهور كي يرضيهم. . ومن وراء هذه المهنة. . . كان يرتزق ما يسد رمقه ويسكن جوع أمه وذلك مدة خمسة وعشرين عاماً. وهو لا يفتأ يكتب للصحف دون أن يبتسم له السعد. . ودون أن يحالفه الحظ ليدفعه في عداد الكتاب المرموقين والمؤلفين المعدودين. ولكنه كان برضي بهذا اليسير وبحد الله على نعمائه. . ويشكره على ما أسبغ عليه. .

ولم يتركه الفقر بما هو عليه. . بل نشر سحابة على منزله الذي اختاره في أحد أحياء الفقراء المعوزين. . ولم يجد في حياته أحداً ليزيل عنه شبح الحاجة. . ويشاركه في حرمانه وشقائه سوى والدته العجوز التي أضناها الداء. . وأقعدها العجز.

هذه هي حياة (جان فينول) الكاتب الروائي الذي كان ينشر رواياته. لكنها لم تلق قبولاً حسنا بين الجمهور: إذ أنهم كانوا يجدونها فارغة جوفاء. . لا أثر للحياة فيها. . صامتة خرساء. . لا سبيل للعاطفة إليها. . خالية من الإبداع حتى أن رئيس تحرير أحد الصحف قال له ذات يوم: إن القراء ينكرون صدق عاطفتك. . وقوة وحيك. . وخصب خيالك. . فأرجو أن تمد قصصك ورواياتك من خيالك الواسع حتى تلبسها ثوباً قشيبا من البهجة والروعة. .

وسكت جان على مضض. . وقد تحير فيما يجيب. . إلا أنه

أرسل زفرة حرى انبعثت من صميم فؤاده الملكوم. . وأخذ يحدث نفسه: إنني أعتقد بموهبتي أنها أرفع شأناً. . وأعظم قدراً من أن أكون واضع روايات ومؤلف قصص لإحدى الصحف) وخرج من عند رئيس التحرير مهيض الجناح. . ومنكسر الخاطر. . منطوياً على نفسه. . تاركاً عنان حياته للقضاء والقدر. . فلا يدري ما يخبئ له الزمان. . ولا يعلم ما يضمر عنه الغد. وظل صابراً على الأذى، مقيماً على الضيم والحرمان. . حتى امتدت يد المنون إلى منزله. . وسلبت والدته من حياته فتركته وحيداً مفرداً. . لا أنيس له. . ولا رفيق يشاركه لوعة حرمانه. . وعذابه. . وشقائه. .

ولم تمض مدة على وفاة والدته حتى تسرب الملل إلى نفسه، ورأى السأم في حياته. . فأحاطت عيشه هالة دكناء. . وغمرت بيته. . فإذا بالوحشة تتمثل أمام عينيه وتتراءى له عن كثب كأنها أشباح تتراقص وتزغرد لتسلب منه كسرة الخبز التي يتناولها كل يوم مرة. .

فقد الأمل. . وضاع الرجاء. . دون أن يهتدي إلى شعاع يستمد منه السعادة المسلوبة. . وكان بين حين وآخر يستلق على مقعده ويحدث نفسه: يا إلهي. . ما هذا الشقاء البرم. . وما هذه الحياة الدكناء. . ألا تعساً لها. . وسحقاً لمن يرضخ إليها. .

وذات ليلة دخل غرفته كعادته. . متهالكاً على نفسه. . يجر خطاه جراً. . وألقي نظرة على أثاثه الذي أكل الدهر عليه وشرب وجلس وراء مقعده ليشرع في كتابة قصة للجريدة. . والتفت إلى نار المدفأة. . فرآها خامدة كحياته، لا أثر لها وأراد أن يوقدها. . دفعاً للبرد القارس ووقاء من الزمهرير العاتي. . وفتش عن عود ثقاب. . فلم يجد وهم بالنزول لشراء علبة جديدة ولكنه تريث قليلاً إذ طرأ على فكرة أن يفترض واحدة من جارته العجوز (أم ماتيو) التي فقدت أبنتها الوحيدة بعدما ترملت وخلفت طفلا لترعاه جدته العجوز. .

طرق جان الباب على الأم ماتيو. . ليسأل حاجته منها. . ففتحت له. . وألقى نظرة عليها فرآها وقد أضناها التعب وأنهكتها الفاقة. . ومد بصره إلى الداخل. . فشاهدها وقد جمعت فراشها. .

وحزمته على ضوء شمعة ذاوية. . فبادرها: ماذا تفعلين. . وأي شيء تصنعين.؟؟ وما السبب الذي دعاك لأن تربطي الفراش. . فأجابته بعد ما طفرت الدموع من عينيها: إنك كما ترى. . لقد صممت ان أذهب. . وأرهن فراشي مقابل مبلغ. . لأني في حاجة قصوى إليه. .

فقال: ولكن. . ترهنين فراشك لحاجتك؟

قالت: نعم. . إنني مرغمة على ذلك. . فقد بلغني اليوم أن شقيقتي أقعدها المرض وقد رفض قبولها في المستشفى. . لأنها لا تملك ثمن دواء. . ورأيت أن واجبي نحوها يدعوني أن أقدم إليها المساعدة. . فلم أجد سوى أن أرهن فراشي راضية أن أفترش الأرض. . حتى يتسنى لي أن أجمع هذا المال فأرد به فراشي. . على أن أذهب الآن. . قبل فوات الأوان. . أما الطفل فلا أدري أين أو دعه ريثما أعود. . فهزت الشفقة والرحمة نفس جان فترقرقت دموعه في عينه وقال: دعي فراشك هنا. . وإنه ليسوئني أن أراك على هذه الحال. . هاهي عشرة فرنكات أقدمها إليك لتستعيني بها على شراء الدواء لشقيقتك المريضة. . أذهبي حالا الآن. . واتركي الطفل هنا. . أقوم على حراسته حتى تعودي. .

وحاولت أن تشكره على شهامته. . ولكن الكلمات ارتبكت على لسانها. . واستعصت في فمها فأنفجر الدمع من عينها. . وغادرته بعد ما عهدت إليه بطفلها. .

واستلقى جان فوق الفرش المحزومة. . وأخذ يتأمل أثاث الغرفة والطفل أخرى ويناجيه بقلبه: أيها الطفل المسكين. . هذه هي جناية آبائنا. . وأمهاتنا. . يرموننا في هذه الحياة بالرغم عنا. . دون أن يأخذوا رأينا. . ولو سئلنا. . لا ريب كان جوابنا. . لا. . لا نريد أن نحيا. .

ثم يعود إلى نفسه ويتساءل: ما أكثر أمثال هذا المسكين. . حيث ينتظرهم المستقبل المبهم. . ليقذفهم في مضمار شقائه. . فأي مستقبل ينتظرهم. . وأي صباح يبتسم لهم. . وأي مساء يقطب أمامهم. .

مسكين هذا الطفل. . فها هي جدته قد أنهكها طول العهد. .

وقد أصبحت على حافة القبر. . تنتظر موافاة المنية بين يوم وآخر فأي مصير سيكون لهذا المسكين وأي سبيل سينتظره. . علم الله. . عله يكون من هؤلاء المنبوذين. . المتشردين في أرض الله. . يتخبطون في خضم من الجنايات وينساقون في سيل من الجرائم هؤلاء اللصوص الذين يودعون حياتهم بين جدران السجن في عذاب. . وألم. . وحرمان. .

وهكذا تسلطت هذه الأفكار. . واستولت رأس جان. . فانطلقت الدموع إلى سبيلها. . وهو مطرق ساهم. . يتأمل الطفل حيناً. . ويسبح في خياله وقد خيم عليه الهدوء والسكون. . إلى أن دخلت عليه الأم (ماتيو) فوجدته على حاله يبكي. . فاستخبرته عن سبب بكائه فأجابها: لاشيء. . فكرة ألمت بي ولكنني أريد أن أقترح عليك. . عملا نقوم به سوية. . فما رأيك. .

فأجابته: حسناً تفعل. . وما هو. .؟؟

قال: ماذا تقولين. . فإن ما أحصله من المال. . يكفيني. . ويكفي والدة لي - لو كان لي والدة - فهل ترضين. . أن تشاركيني العيش مع طفلك الصغير. . وبذلك نضع جل اهتمامنا في تربية هذا الطفل. .

فصاحت الأم من أعماق فؤادها بعد ما سمعت ذلك. . وهمت أن تركع أمامه لتشكر رجولته. . وتحي شهامته. . ولكنها تمتمت بعدما غلبها الدمع: يالك من رجل. . تريد أن تنق حياة طفل بريء. .

وبعد مضي مدة من قيام هذه الأسرة على قدم من الفقروساق من الفاقة. . كان خلالها جان قد أنهى روايته الجديدة التي أطلق عليها أسم (اليتيم) وما أن انتشرت بين الناس حتى نالت رواجاً لا مثيل له. . وأحرزت تقديراً من جميع القراء على اختلاف ميولهم وأهوائهم. . فقد أحس كل فرد منهم بالروح الحية التي تنبض فيها. . وفي أحد الأيام. . التقى جان برئيس تحرير الجريدة. . فبادره قائلاً: إنني أرحب بك اليوم. . وأقدم لك أجمل التهاني. . وأعظم التمنيات على روايتك (اليتيم) وإنني أصبحت أحد المعجبين بها. . فقد لاقت. . رواجاً كبيراً في أكثر المدن. . فإذا كتبت بعد اليوم قصة أو رواية. . فابعثها إليَّ كي أنشرها لك بكل سرور وامتنان مقابل ثمن

ترضى عنه..

ومنذ ذلك الحين حالفه. . وأقبل النجاح عليه. . فأبح من الكتاب المرموقين في المدينة.. بينما لم يغير منهاج حياته. . وظل يعيش مع الطفل وجدته عيشة. . راضية هنيئة. . ترفرف عليهم السعادة والوئام..

obeikandl.com

obeikandl.com

الجنية العاشقة

أميل زولا

أرهفي أذنك يا نينون! إن مطر ديسمبر يلطم الزجاج، والهواء يرسل أنينه، ويردد شكواه. . إنها أمسية من الأماسي الباردة، التي يقضقض البائس فيها من القر، أمام قصر الغني الغارق في اللذائذ تحت توهج الذهب!. . . اخلعي حذاءك هناك. . . وضعي حليتك الثمينة هنا. . وتعالي إلى أحضاني، فسأروى لك قصة من أروع قصص الجان.

نينون! هناك على ذروة الجبل قصر عتيق ساد الظلام فيه وجثم الحزن فوقه. . ما ترين إلا أبراجاً صاعدة نحو السماء، وأسوار منيعة شماء، وجسوراً متحركة جهزت بالسلاسل، وملئت برجال أولى بأس شديد، لبؤسهم الحديد، يسهرون الليل والنهار على الشرفات، ولا يجدون راحة أو سلوة إلا بجانب سيد الحصن الجبار، الكونت أنكيرون.

لو كنت رأيت ذلك الكونت يا نينون، وهو يتنزه في مماشي القصر الضيقة، وسمعت قرقعة صوته بندر بالوعيد، إذن لأصابك الجزع، واضطربت كما تضطرب أوديت أبنة أخيه؛ تلك الحسناء الرعبيب التي تفتحت أنوثتها بين فرسان قساة، كما تتفتح زهرة الأقاح، إذا تنفس الصبح، تحت قبلات الشمس الضحوك بين أشواك الجبال.

كانت وهي طفلة، إذا أبصرت عمها الشيخ، وقد ضمت إلى صدرها الدمى زرت، عيناها وهبت مذعورة. تذرف الدمع. أما الآن فهي في ربيع الحياة. إن ثدييها يا فتاتي يبثان الشكوى ويرسلان الآهات. وما يزال الخوف يستولي على نفسها كلما طلع أمامها هذا المحارب القديم. . .

وكانت تأتي إلى برج بعيد، تتلهى فيه بحياكة أعلام ورايات فإذا أعياها هذا العمل الموئس لجأت إلى الله تبثه حزنها وتدعوه، أو قلبت طرفها في السماء الضاحكة وسرحت بصرها في المروج الحادرة. . . وكم من المرات، يا نينون، كانت تقوم من مهجعها وقد سجا الليل وهف النسيم لتنظر إلى النجوم. . . وكم من المرات كان قلبها يخفق لهذا المشهد الساحر، ويحن إلى تلك المروج المتوائبة نحو الأفق البعيد، ثم تسائل الكواكب عن ذاك الشيء الذي يتلاعب بروحها ويثير شجونها. . .

ودت بعد تلك الليالي التي ساهرت فيها النجم وبعد ذلك الحنين اللاهف للحب لو أنها ضربت يوما عنق هذا الفارس الهرم فوقصتها ولكن، وأسفاه! ما كان لها حول ولا قوة. . . إن كلامه جاف يرعب، وإن نظراته جامدة تفزع. . . فكانت تأخذ الإبرة مضطربة الحواس واجفة القلب وتعود إلى وشيها الشاق!

إنك تأسفين، يا نينون، يا نينون، لتلك الحسناء، إنها كالزهرة الريانة ذات العبير الطيب والأريج الشذي التي يصدف الناس عن رائحتها ويلهون عن جمالها. . .!

كانت ترنو يوما بعينين حالمتين إلى قمريتين تريدان الهرب من الحصن، فسمعت صوتاً عذباً يتعالى عند باب القصر، فانحنت من الكوة، وإذا شاب حلو القسمات وسيم المنظر، تأنس العين لمرآه، يطلب المبيت، مرسلا أنشودة بصوت رخيم ما فهمت لها معنى ولكن خفق لها قلبها. ورأرأ الدمع في عينيها، ثم فاض. . . فساقطت دراً من نرجس، وبللت غصنا من المارجولين كان بين يديها. .

وساد سكون عميق، وبقيت الأبواب مغلقة. ونادى فارس من أعلى الأبراج قائلاً.

أذهب وشأنك أيها الغريب، فليس هنا سوى فرسان محاربين. .

وهم الطارق أن يذهب. ولكن أوديت، التي علق بصرها به، فما يطرف أو يتحول، تركت الغصن رطباً بالدمع، يفلت منها، ليقع تحت أقدامه ورفع الشاب رأسه، فإذا وجه صبوح بطل عليه. . . والتقط الغصن ليشبعه لثماً وتقبيلا. ثم ابتعد عن القصر، وهو

ينظر كل لحظة إلى الفتاة.

فلما غيبة الطريق المنحدر قامت أودية تدعوا الله وتصلي له، ثم شكرت للسماء وأحست السعادة فرقصت فرحاً وهي لا تدري لكل ذلك سبباً. . .!

فلما كان الغسق جلست إلى رابة تصلحها، وهي تفكر في ذلك الفتى، ثم داعب النعاس أجفانها فأذبلها وارتمت على فراشها. . . واستسلمت لنوم غرق مضطرب، ورأت حلما. . . إنه حلم ساحريا نينون! خيل إليها أنها ترى غصن المارجولين الذي أفلت من يديها، وإذا بجنية، ما رأت العين أجمل منها تخرج من زهرة تتفتح بين أوراق الغصن المرتعشة. ولها أجنحة من اللهب، وتاج من الأزهار، تتدثر برداء أزرق، لونه رمز الأمل، وتناديها بصوت حلو النبرات:

أوديت! أنا الجنية العاشقة! أنا التي أرسلت إليك لويس هذا الصباح ذاك الفتى ذا الصوت الحنون. . . أنا التي، وقد رأيتك تذرفين الدمع، جئت لأجففه. . أضرب في الأرض، وأؤلف بين قلوب العاشقين!. . . أزور الكوخ، كما أزور القصر، وأجمع عصا الراعي إلى صولجان الملك. أنا التي أزرع الورد تحت أقدام المحبين. .! ثم أربط بينهم ببنتين تختلج القلوب لهم فرحاً. أعيش بين الأعشاب، وفي جذوة الموقد المتآكلة، وتحت رفارف أسرة الأزواج. .! وحيث أضع قدمي فهناك يقوم حديث الغزل، ويكون همس القبل! لا تبكي أوديت، فقد أتيت لأجفف دموعك. . .

وعادت الجنية إلى الزهرة التي خرجت منها، واختفت هناك. .

أنت تعرفين يا نينونأن جنيتنا في الوجود. . انظري إليها ترقص في الموقد، وتألمي لمن لا يفكر بها.

واستيقظت أوديت وأشعة الشمس تنير غرفتها والعصافير تصدح بالأغاني والنسيم الصافي يداعب شعرها المغدودن الأشقر، وقد حمل عبير القبلة الأولى التي سرقها من الأزهار على عجل. فنهضت والنفس مفعمة بالفرح، وقضت يومها تغني تارة وتنفض الحقول أخرى، وترسل ابتسامة رقيقة لكل عصفور يحلق، والأماني تغريها فتقفز هنا وترقص هناك، ثم تضرب كفيها

الصغيرتين بعضهما إلى بعض بقوة وسرور...

فلما كان الطفل تركت مخدعها، وهبطت إلى ردهة القصر الكبرى فوجدت فارسا يصغي إلى حديث عمها الكونت، فعمدت إلى مغزلها وانتبذت مكانا إلى جانب الموقد تسمع إلى صرصريغني.

ونظرت إلى الشاب، فإذا غصن المارجولين بين يديه، يا الله! إنه لوئيس... وعلت وجنتها حمرة ونضرة، وكادت ترسل صرخة، تدوي في فضاء الردهة، ولكنها انحنت على الموقد تؤرث النار فيسمع لها حسيس كأنه بث الأحزان، ويتمايل اللهب، ويفور الموقد، وتهيج النار. وفجأة ينجس من الموقد نور شديد وتظهر الجنية العاشقة، وقد افترمنها الثغر، ومال منها الجيد.. فتجمع ثوبها الأزرق بين يديها، وتنطلق في الغرفة دون أن يراها أحد إلا أوديت...

أما الكونت فكان مسترسلا في حديثه بقص نبأ معركة هائلة وقعت مع الكفار، ويقول:

فتحابوا يا أولادي.. ودعوا أشباح الشيخوخة الزاهدة. أبقوا لها الأقاصيص بجانب النار المشتعلة، ولا تجمعوا الآن إلى زفير النار سوى وسوسة القبل.. ! سيكون لكم يا أولادي من ذكرى هذه الساعات التي ذقتم بها اللذة ما يخيف أحزانكم وهمومكم فيها بعد... والمرء عندما يحب وهو في السادسة عشرة من عمره، فالكلام لا يجديه آنئذ نفعا. إن نظرة واحدة خير من خطاب طويل. تحابوا يا أولادي وتركوا الشيخوخة تتكلم...

وأظلت الجنية العاشقين بأجنحتها، فغدا الكونت لويس الحبيب، وهو يطبع قلبته الأولى على جبين أوديت الحبيبة المرتعشة!

نينون! يجب أن أتكلم لك على أجنحة جنيتي.. لقد كانت شفافة كالبلور، دقيقة كأجنحة الذباب، ولكنها أيضاً كانت تنقلب إلى ظلام دامس كثيف فلا يتجاوزها عندئذ رنين القبلات ووجيب الأفئدة... ليكون العاشقان بنجوة من العيون! وهكذا... وبينما الشيخ غارق في حديثه عن معركة المؤمنين والكفار، كانت معركة القبل قائمة بين لويس وأوديت...!

لقد حضن الجسم الريان، وقبل الخد الأسيل، ودغدغ النهد الناعم، وتمتع بالطرف الوسنان. . . والشيخ في حديثه غارق مسترسل. . .!

ليت شعري ما تلك الأجنحة. . .؟ إن الفتيات ليجدنهن أحياناً - كما قيل - فيأمن الأبوين ويتمعن بالحبيب، أحقاً ما يقال يا نينون. . .!

واختفت الجنية العاشقة، وقد أنهى الكونت قصته، وذهب لوئيس شاكراً لمضيفة الكونت. . . ونامت الفتاة تحفها السعادة، والأماني حولها حومترفرف، والعين قريرة والبال هادئ.

أما هذه الليلة، فقد رأت جبالا كلها أزاهير، زينت بالوف من الكواكب المصابيح نور كل منها أشد وضاءت من نور الشمس. . . .

وأصبح الغد، فلما متع النهار نزلت إلى حديقة القصر والتقت ثم بفارس حياها فردت له التحية، ولما ابتعد عنها نظرت إليه، فأذا غصن المارجولين معه رطب بالدمع. وها هي ذي أوديت تلتقي بالحبيب مرة أخرى. . . لقد عاد إلى القصر بعد أن تنكر بزي فارس. أواه يا نينون! لشد ما يكون السرور عظيما عندما تلقى الحبيبة بفتاها في وضح النهار. . .!

وأجلسها على مقعد مخضوضر من العشب تحت ظلال السنديان، واللسان صامت والعقل شارد، وراحت العيون تتناجى. . . والأفئدة تصغي. . .

لن أقول لك يا فالتي ما تحدثت به شجيرات السنديان عندما رأت الحبيبين. إن في سماع الحبيبة وهي بين يدي الحبيب لذة، لقد جاءت الطير كلها تستمع إلى لحن الحب، وتبنى أعشاشها فوق تلك الشجرات. . .

وسمعت الفتاة على حين بغتة وقع أقدام الكونت وهو يمشي في الممر الطويل. زفأصابتها الرجفة وانتظرت شرا مستطيرا. ولكن إن الينبوع لا يزال يرسل خريره الحلو الشجي، وها هي ذي جنيتنا الحسناء تأتي فتظلل العاشقين بأجنحتها والهواء رخي، ويختفيان عن الأبصار، ويعاودان حديث القبلات. . ويقترب الكونت، فيأخذ

العجب! إنه ليسمع أصواتا ولا يرى أناسا!.

وانبرات الجنية الحسناء تقول:

- أنا حامية الحب، أضرب على من لا يجب غشاوة فما يسمع أو يرى! لا تخافا بعد اليوم أمرا، أيُها العاشقان الجميلان.. بل أجيبا داعي الحب في وضح النهار، والجو صاف وفي الليل والنسيم يرف، وبجانب الينابيع والأوراق تحف. أرسلني الرب لأصرف عنكم أذى الرجال، هؤلاء الساخرين من كل فضيلة، وحباني بأجنحة من الحب وقال: (اذهبي ولتتحاب القلوب! فيا بشركم. إني هنا أحمي الحب وأرعاه...

ثم ذهب تلتقط الندى غذاءها الوحيد تاركة وراءها الحبيبين، وقد علق فم بفم، واشتبكت كف بكف..

وبقيا حتى الليل؛ فلما دنت ساعة الفراق ظهر الأسى في نظراتهما، فأسرت الجنية إليهما بقول يخيل أنه راقهما، فانبسطت أسارير، ولمست به جبيني العاشقين.

وفجأة... أوه! يا نينون. ما لك دهشت.

هكذا. انتظري سأتمم قصتي.. وفجأة انقلب لوئيس مع أوديت إلى غصنين من أغصان المارجولين! نعم من المارجولين الغض الزاهي. نبتا جنبا إلى جنب، ولا مست أوراق الأول أوراق الثاني، واشتبكا. هنا يا فتاتي. تتفتح أزهار لن يمد الذبول إليها يده، بل تبقى.. ويبقى أريجها متضوعا إلى الأبد.

والآن يا نينون، عندما نعود عند المروج الخضراء سنبحث عن أغصان المارجولين وسنسألها في أية الزهرات تختبئ الجنية الحسناء. إن لقصتي يا صديقتي مغرى، وما كنت لأقصها عليك إلا لأنسيك مطر ديسمبر الذي يلطم الزجاج وأبعث فيك هذ1 المساء شيئاً من الحب... نحوي... أنا!

انتقام الأميرال

أرنست دوويه

كان القصر العتيق يجثم كالحصن الجبار فوق صخرة عظيمة هائلة على سيف البحر. وكانت الشمس حينذاك تضيف للغروب وتنحدر رويدا من شارف السماء، إلى ما بين الأفق والماء. وقد سالت حولها أباطح الدم، وارتسم على جبينها الكلال والابن. ويشرف القصر أيضاً على الطرق الممتد إلى (برست) وعلى قارعة هذا الطريق تقع الميناء وقد أطلت من وزرائها سواري السفن ومداخنها مصبوغة بألوان الشفق الزاهي الجميل. . . ومن نوافذ القصر الضيقة بان البحر كأنه بساط من سندس وإستبرق تجري عليه السفن بقلاعها التي يهددها نسيم الأصيل فتتموج، وتداعبها الرياح الخفيفة فتترجرج. . . وتعلو من القصر المنيف قباب وأبراج شامخة في الفضاء تتحدى الزوابع العاتية والعواصف الهوجاء. . وتحف أغصان الأشجار اللفاء الوارقة بجدران تحركها الرياح العواتي فتبدو كضفائر جافة خشنة لطيف امرأة تضرب فزعا في الليل المدلهم. . . وعندما غسق الليل وأجن الكون في مسوحه الطاخي الأسحم، أترعت السماء سحاب ثقال منشئات تحركها العواصف الهوج في شدة وعنف. وعب عباب الرياح فهاجت الأمواج الصاخبة المزبدة فراحت تصطدم بصخرة القصر الهائلة وتنحسر عنها فيسمع لها زئير كزئير الأسد وهزيم كهزيم الرعد.

في تلك الأثناء كان الأميرال المركيز (دي بك هيلوين) جالسا إلى عضد صغير وضع عليه بضع رسائل عفى على لونها الزمن فاصفر وخال، وبضع زهور ذاوية ونوط قلادة وشريط من الحرير الأزرق، وبجوار هذه الأشياء صندوق صغير مفتوح من خشب الأبنوس المطعم بالعاج، كان ولا ريب يضم تلك الآثار الغرامية المتناثرة على

النضد وتجلت إمارات الحزن على وجه الأميرال بينا لمعت عيناه فجأة ببريق الغضب المسحور.

وكان الأميرال رجلا رقيق البدن واهن العظم له وجه مغضن بارز العضام، وعينان غائرتان قد أنطفأ فيهما التألق والبريق، ويدان معروقتان عاريتا الأشاجع. وعلى الجملة كان بدنه المنهوك قد ذبل بفعل المرض الذي يفتك به فتكا ذريعا. ولقد فقد أميرال البحر العظيم قوة العزم التي كانت تسبح ثائرة في دمعه وتشع من عينيه، وخفت فيه ذلك الصوت الجهوري المليء الذي كان يمزق العواصف ويطغي عليها. ولم تبق فيه ذرة من القوة التي طالما أعجب بها رجال أسطوله وبحارته من قبل. وأبت الجرأة والبسالة أن تسكنا ذلك الجسم المهدم الفاني ففارقتاه بعد إذ كانتا تفوران فيه فورانا حينما كان يزخر بقوة الشباب ويموج بفتوة الرجولة واشتد به السقام حتى صيره هزيلا ناحلا. ولم يبق عليه المرض الجاثم فوق صدره ألا ليعالج هذه الجريمة النكراء التي اكتشف الآن فقط دليلها الحاسم، وليرى مدى قدرته على الثأر وهو من الموت قاب قوسين أو أدنى.

لقد تسلم صباح اليوم رسالة من (نيس) حيث أعتاد أن يقضي فصل الشتاء من كل سنة، يقول فيها كاتبها: (لقد خلت أربع عشرة سنة وزوجك ممعنة في خيانتك، دائبة على العبث بشرفك؛ ولعلك وحدك الشخص الذي لا يعلم شيئا عن علاقتها الآثمة بمساعدك السابق الكابتن (فوشيرون). وإذا أردت على ما أقول شاهدا ودليلا فاذهب إلى مخدع المركيزة، فهناك من ناحية رأس السرير ترى تحت إحدى الصور المعلقة خزانة في الحائط، بها صندوق صغير. افتح هذا الصندوق واقرأ ما فيه، فستنقشع الغشاوة عن عينيك، وتتبين بوضوح ما غاب عن بصيرتك كل تلك السنين المواضي).

وعزا المركيز هذه السعاية إلى خادم مطرود. لذلك قضى سريعا على ما أثاره الخطاب في نفسه من شكوك وأوهام، وفرك الرسالة في يمناه وهم بتمزيقها لولا أن حاك الشك في صدره فأرجع الكتاب يتلوه مرة أخرى. . . وللمرة الأولى في كل حياته مع زوجته تساوره

الظنون والريب. وتحامل على نفسه وغادر مضجعه، ثم راح يجر نفسه جرا، وفي الحرز المعين في الكتاب ألفى أدلة الاتهام السود.

وراح يتمثل ويعجب كيف مرت عليه هذه السنون الطوال وهو غارق في لجج هذا الوحل دون أن يدري... ها هو ذا يمضي إلى مثواه الأخير تكتنفه قرائن الجريمة الدنسة التي اكتشفها اليوم فقط هازئة ساخرة... فكيف إذن يتسنى له الثأر لنفسه من هذين المجرمين قبل أن ينطفئ سراج حياته الخافت الضئيل.

يا للخيانة والغدر! أزوجه الذي شملها بحبه ووهب لها كل قلبه؟! ومرؤوسه الذي أمطره بوابل من عنايته، وغمره بفيض من صداقته.. يا للعار ويا لدرن! أنسى هذا السافل الخؤون، هذا الجاحد الكنود... أنسى كيف كان يرعاه كابنه وزيادة؟ وهذه الشقية زوجه؟

لا نكران أنه اقترن بها والفرق بين عمريهما جد كبير. إذ كانت في العشرين وهو في الخمسين... بيد أنه ليس ثمة من ينكر أيضاً أنه انتشلها من وهدات اليتم والمسبغة، وأضفى عليها لقبه المجيد التالد وقلبها في ثرائه الواسع وضمن لها الحماية والرعاية في حياته، وسيخلع عليها من تراثه درعا يقيها من بعده عدوان الناس وغدرات الزمن. أبدا.. ما أرغمها امرؤ على الزواج منه، بل كان هذا على اختيار منها ورغبة... ولم يكن يوما ليني عن تلبية رغبة لها مهما صعبت وشقت. فالصيف في الريف الجميل الساحر، والشتاء في أرفع فنادق باريس الفواخر. أو إذا شاءت في قصره العظيم في (نيس). في كل حفل كانت تبدو زينة الأتراب والصواحب، وفي كل جمع كان يعلو بها اسم زوجها إلى أرفع مكان وأسمى منزلة بين سائر الفتيات والعقائل. وبينا كان يثق في وفائها وإخلاصها ويعجب بجمالها وفتنتها ويتيه لسحرها وأنوثتها، إذا هي تخونه وهو لا يدري.

لقد خدم بلاده أربعين سنة سويا. حارب في أفريقيا وفي المكسيك، وحاز أرفع القلائد والأوسمة، وجلب المجد والفخار لأبنه... ثم ماذا بعد كل تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال وطيب المآثر؟ عار تجلبه عليه هذه المخلوقة الشقية وهو من الموت

على شفا جرف هار.

وليت الأمر قاصر على هذا فحسب، بل جرته إلى شك مظلم يتخبط فيه حتى ليكاد يذهب عقله فيمضي إلى رمسه مخبولا. ابنه (باتريك) زهرة آماله وعمره الثاني... ابنه هو، أم ابن غريمه فوشيرون؟ باتريك. لقد شب ونما في قصره العتيد حيث تقضي أمه كل شتاء وحيث كان يذهب هو ليعانقه ويتملى من رؤيته. أنه يبدو قويا كغصن شامخ فتي، ويتجلى الزهو والكبرياء في نظراته، ويبدو الصلف والخيلاء في لفتته، وتنطلق ملامح وجهه بقوة العزم وشدة المراس. يا له من إله صغير من آلهة القوة والجمال! خير خلف لأشرف سلف. ومما زاد الرجل تعلقا بابنه وحبا له أنه ورث عنه قوة العزم وصلابة الرأي وثبات الجنان.

والآن تقضي هذه الجريمة التي اقترفتها زوجه على كل تلك الذكريات السامية حول ابنه وذلك الإعجاب الذي يجنه الرجل لوحيده.

وأمسك الرجل التعس رأسه الثائر بين كفيه كأنه يمنعه من الانفجار، وسرت حمى الغضب في دمه فغمغم وهو في تلك الحال من اليأس والضعف والمرض.

- سأنتقم لنفسي... سوف أثأر لشرفي...

ولكن كيف؟ أيقتل ذينك اللذين لوثا اسمه ولطخا شرفه وكيف السبيل إليهما وهذه الفراسخ العديدة تفصلهما عنه، فلا هو بمستطيع أن يبلغهما، ولا هما ببالغيه قبل أن يموت... وأوغل في سبل الانتقام الكثيرة المتشعبة... وأغطش الليل ولما يهتد فكره إلى سبيل يبلغه طيته فيشفي غليله... واستلقى على الفراش بقلب ممزق وأضلع تكتنزنارا تكاد تأتي على بقايا جسمه المحطم.

وعندما انصدع عامود الفجر أقبل طبيب الطوافة (العتيد) التي اعتلاها علم الأميرال طويلا، ليعود رئيسه العليل؛ وذعر لدى رؤيته وجه رئيسه الشاحب الممتقع، ودهش لتقدم المرض السريع في يوم وليلة... ونم وجهه عن ذعره ودهشته فقال الأميرال:

- قل إني انتهيت يا دكتور.

لم يضع الأمل بعد يا سيدي. . . إنك في حال سيئة ولكن. . .
- لا تراوغني. لقد صمدت للموت مرارا، ولا أود أن يأخذني هذه المرة على حين غرة. قل الحق إني آمرك. . .
فظل الطبيب صامتا لا ينبس دقيقتين قال بعدهما:
- سيختارك الله هذا المساء على الأكثر يا سيدي إن لم تحدث معجزة وتلقى الأميرال الصدمة بكل ثبات. . . قال:
- حسن. . . وستعودني طبعا مرة أخرى. . . أليس كذلك؟
- بالتأكيد يا سيدي الأميرال. ألا تحب أن تخطر سيدتي المركيزة؟
- وأي جدوى في ذلك وهي في نيس. ثم إني لا أود أن أحملها الحزن فجأة. إنها تعلم أني مريض، وستعرف على كل حال أنها ترملت، ولكن يجب أن يكون هذا بعد أن أموت.
فانسحب الطبيب
وقابله باتريك لدى الباب فقال له:
كيف أبي؟
فلم ينبس الطبيب بل أجابت عنه عيناه، فأسرع الصبي نحو أبيه بقلب جزوع. فنهض الأميرال بجهد جهيد على مرفقه وقال:
- أدن مني يا بني. إن لي حديثا معك. . . إنك في الثانية عشرة من عمرك يا باتريك، ولكني مضطر أن أحدثك كما أحدث رجلا.
ولم يأخذ منهما الحديث طويلا. ولكن حينما انتهى ومضت عينا الصبي ببريق من نار، وتثلج بدنه حتى كأنما انتقلت برودة الاحتضار من بدن أبيه إلى بدنه. وفي أثناء هذا الوقت القصير انتقل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة، وما تحمل من متاعب وأعباء.
وفي السنة التي تلت ذلك، أي بعد موت الأميرال بعشرة أشهر أو تقل راح الناس يلغطون بقرب زواج أرملته من الشاب الوسيم القسيم فوشيرون. تناقلوا ذلك فيما بينهم في غمز ولمز كأنما كان ذلك عين ما يتوقعون. ويبدو أن العاشقين قد آثرا بعد علاقتهما الدنسة الآثمة أن يرتبطا بعلاقة يقرها العرف والدين.
ووصل الكابتن فوشيرون ذات صباح إلى القصر العتيد حيث

تنتظره المركيزة مع ابنها بعد إذ قضى زوجها نحبه.

وعندما متع النهار وارتفعت الشمس دخل باتريك على أمه يحمل من الأعباء ما ينوه به عمره الصغير. قال لها:

- أحقا أنك تعدين العدة للزواج من الكابتن فوشيرون يا أماه؟

فأجابته بصوت مضطرب.

- من أبلغك هذا؟

لم ينبس الغلام. فاستطردت المرأة

- على كل يجب ألا يستجوب الغلام أمه.

- إني لا أقبل مهما يكن الأمر أن يشغل الكابتن فوشيرون مكان أبي.

لا تقبل! ماذا تقصد بهذا الهراء؟ ثم أشارت إلى الباب ماضية واستأنفت.

- أخرج من هنا حالا يا سيدي.

فانصرف من لدنها إلى غرفته، ثم غادرها بعد بضع دقائق إلى غرفة فوشيرون واقتحمها دون استئذان واضعا إحدى يديه ففي جيب بنطلونه.

وكان فوشيرون يحلق لحيته أمام مرآة، فاستدار نحو باتريك وقال:!

- إن اللياقة تقضي بدق الباب قبل الدخول.

أنه بيتي يا سيدي، ومن حقي أن أدخل أية غرفة فيه بدون دق ولا استئذان، ثم أن لي حديثا معك.

- لك حديث معي؟ تكلم

- إني أعلم سبب وجودك هنا. وإن ما تبغيه لا يمكن أن يتم. ويجب أن ترحل الليلة على ألا تعود أبدا. إنني أمنعك من الزواج بأمي.

- إنك مجنون ولا ريب أيها الطفل.

- من الخير لك أن تطيعني.

- فشحب وجه فوشيرون من شدة الغضب. وومضت عيناه من فرط الغيظ. وقال:

- أخرج أيها الغرير وإلا عركت أذنيك. واتجه نحو باتريك رافعا يده فتراجع الغلام عنه ثمة وأخرج من جيبه شيئا كان يخفيه، مسدسا ورفع به يده. ضغط الزناد، فأنطلق.

فأنشق صدر فوشيرون عن صرخة هائلة دوت في سكون القصر العميق. وترنح ثم سقط جثة هامدة وقد اخترقت الرصاصة جبينه...

وأقبلت الماركيزة على عجل ورأت كل شيء... ثم صرخت تقول بعد أن ألقت بنفسها على ابنها وجردته منة سلاحه.

- ماذا فعلت أيها الشقي؟

وتركها باتريك تأخذ منه السلاح ثم قال: وقد رآها ترتمي على الجثة تبكيها وتندبها!

- لقد أنبأني أبي قبيل وفاته أن هذا الرجل عدو لي وعدو لك، وأوصاني بحمايتك من شره وغدره حتى ولو أدت الحال إلى قتله. وقد نفذت وصية أبي.

ثم أشيع بين الناس أن الكابتن قوشيرون مات منتحرا

obeikandl.com

obeikandl.com

الدم

إميل زولا

ها أنت ذي لا زلت بين أشعة الشمس وأرج الأزهار. ألم تسأمي هذا الربيع المستمر يا نينون؟ دعيني إذن أغمض جفنيك الناعستين على تلك القصة الكثيرة الهول، فإن النفس متى ملت طول النشوة قد تسكن إلى صوت الأهوال.

- 1 -

في اليوم الذي انتصر فيه الجند أخذ أربعة منهم مقاعدهم عند ركن من ميدان القتال وقد التف من حولهم الظلام وهم يتناولون طعامهم بين جثث الموتى.

وكانت ألسنة اللهب التي يشوون طعامهم عليه تنعكس أشعتها على وجوههم وترسل من خلفهم ظلالا ضخمة إلى مسافات بعيدة حتى أن سيوفهم كانت تتألق من وقت لآخر تحت شرارات تلك النار، وحتى أن الناظر كان يلمح في قلب الظلام جثث القتلى وهي نائمة جاحظة العيون.

أما رفاقنا فكانوا فرحين يضحكون في جوف الليل غير شاعرين بتلك العيون المحملقة فيهم. ولعل لهم عذرا من هول ما رأوا في يومهم الدابر، ومن الهول الذي ينتظرهم في الغدر. فأخذوا يحتفلون بتلك الساعات القليلة التي جاد بها عليهم حسن الحظ غافلين عن ظلام الليل وظلام الموت وأجنحتها التي تحلق فوق هذا الميدان فتهز سكوت الفضاء.

ولما انتهوا من طعامهم تاقت نفس أحدهم إلى الغناء واسمه (جنوص) ولكن نبرات صوته كانت تمزق غشاء الهواء القاتم الحزين، وكانت أغنيته إذا خرجت من شفتيه امتزجت بالصدى

فكانت كتهد عميق. وعند ذلك شق حجاب الظلام صرخة مزعجة دوت في الفضاء فاضطرب حتى أنه كلف رفيقه (إلبرج) ليذهب ويرى فلعل إحدى الجثث عادت إليها الحياة. وهكذا ابتعد إلبرج على ضوء مشعل أخذه معه ورفاقه يشيعونه بعيونهم لحظة على قدر ما يسمح به امتداد الضوء فأبصروا به وقد انحنى من بعيد يسائل الموتى ويفتش بينهم بطرف سيفه ثم اختفى.

وبينما هم سكوت صاح جنوص بزميله الثاني (كليريان) أن يذهب في أثره خوفا عليه من الذئاب.

وهكذا اختفى هذا أيضاً في الظلام.

أما جنوص وفيلم فبعد أن طال بهم الانتظار ارتديا معطفيهما واستسلما للنوم إلى جانب تلك النار وقد أشرفت على الانطفاء. وما كادا يغمضان أجفانهما حتى سمعا تلك الصرخة من جديد وكأنها تمر من فوق رأسيهما حتى أن فيلم انتصب فزعا واتجه إلى تلك الجهة التي اختفى عندها رفيقاه.

وهكذا لبث جنوص وحده وقد أخذ شبح الخوف يتمثل لعينيه كلما وقع بصره على تلك الهوة السوداء التي كانت تدوي بحشرجة الموتى. وعندئذ ألقي في النار بعض الحشائش اليابسة لعل اشتعالها يبدد شيئا من ذلك الرعب الذي تملكه.

ولقد أخذت ألسنة اللهب ترتفع أخيرا حمراء كالدم فأضاءت الأرض على مسافة مستديرة واسعة كان يخيل إليه أن حشائشها أخذت ترقص من فوقها، وكأن أصابع خفية كانت تحرك جثث القتلى.

على أن القمر أخذ بعد ذلك يظهر قرصه عند الأفق فتبدد أشعته الضئيلة مخاوف تلك الأهوال التي كان الليل يخفيها في جوفه وكانت الصحراء جرداء خالية إلا من بعض أشلاء منطرحة تحت أكفان من النور.

أما جنوص الذي كان العرق يتصبب من جسمه فقد فكر في الصعود فوق رابية هناك وهو يسائل نفسه: لم لا تنصب من مكانها أشباح أولئك الموتى وقد أخذت تحملق فيه. وهكذا أخذ جمودها

أيضاً يرسل إلى قلبه عوامل الرعب فأغمض عينيه. وبينما هو في مكانه جامد شعر بحرارة تدب في قدمه اليسرى فانحنى ليتبين أمرها ولكنه رأى سلسالا رقيقا من الدم يعلو وينحدر بين الحصى، ولجريانه خرير ناعم لطيف.

وكان هذا السلسال يخرج من الظلام ويتلوى تحت أشعة القمر ليعود ثانية إلى الظلام، فكان كالثعبان الملطخ ببقع سود تتتابع كالحلقات بخفة وبلا انتهاء. وعندئذ تراجع إلى خلفه وقد تمردت أجفانه فلم يستطع إطباقها من هول ما رأى. أما السلسال فأخذ يتسع مجراه حتى استحال إلى جدول ثم إلى نهير ثم إلى سيل يسمع له وهو يجري صوت أصم وقد أخذ يقذف على جانبيه زبدا أحمر، وأخيرا استحال إلى نهر واسع يكتسح أمامه هذه الجثث.

ولكن كيف خرج كل هذا الدم الغزير من جروح أولئك الموتى حتى غمرهم؟ وعلى كل حال اضطر جنوص إلى التراجع أما تلك اللجة الصاخبة وقد غاب عن نظره الشاطئ البعيد، كأنما تلك المسافة المترامية الأطراف قد استحالت إلى بحيرة واسعة، حتى خطر له أن يفر لولا أنه وجد نفسه فجأة عند كوم من الصخور وأمواج الدم ترتطم بفخذيه، وكأنما الأشلاء التي يجرفها التيار أمامه تلعنه كلما أبصرت به في طريقها، وكأن كل جرح من جراحها فم يزدريه ويسخر من رعبه. أما البحر الزاخر فكان يعلو ويعلو حتى بلغ صدره، وعندئذ استجمع ما في نفسه من قوة وأخذ يتعلق بالفجوات التي بين الصخور حتى غاص إلى كتفيه والقمر الحزين الباهت ينظر كيف يبتلع هذا البحر أشعته كلما انعكست فيه، وكأن ظلمته ودويه يخرجان من فوهة هوة سحيقة.

- 2 -

ولما بزغ الفجر عاد إلى البرج فأيقظ جنوص وكان قد ضل السبيل في الإحراج فغلبه النوم أيضاً عند شجرة حيث رأى من غريب المشاهد ما كانت صورها لا تزال عالقة بذهنه.

قال: رأيت كأن العالم لا يزال في طفولته والسماء تبتسم والأرض بكر تنبت فيها السنبلة وتنمو، حتى أن شجرة البلوط العالية عندنا لا تعد بجانبها شيئا. الأشجار الباسقة تملأ الفضاء بأوراقها العريضة التي لا يحصيها عد؛ والحياة تجري صافية في شرايين الكون؛ والماء عذب غزير حتى إذا أخذت الأشجار كفايتها منه سال بين أحشاء الصخور.

وكانت الآفاق تمتد ساكنة متشعبة، والطبيعة كالطفل يجثو عند الصباح ليحمد الله على نعمة النور وتمجده هي أيضاً بأريج الأزهار وتغريد الأطيار.

كنت أراها زاهية خصبة تفيض بخيراتها من غير ما نصب، والأشجار ذات الثمر تنمو وحدها، وسنابل القمح تكسو جوانب الطريق كما يكسوها الآن الشوك. وكنت أستنشق الهواء فلا أشعر بأن عرق ابن آدم أخذ يتصبب فيمتزج بأنفاس السماء، لأن الله كان يهيئ كل أسباب الحياة لخليقته.

كان الإنسان كالطير يعيش مما تخرجه له الطبيعة فيأكل من ثمارها، ويرتوي من أنهارها، وينام إذا دجا الليل تحت أشجارها حامدا الله؛ وقد عافت عيناه مرأى الدم، فظل طاهرا، ورفعته طهارته فوق جميع المخلوقات.

نعم كان الوئام سائدا بين الناس، والسلام خافقة رايته في كل مكان؛ حتى أن الطيور ما كانت لتحرك أجنحتها فزعا من الخوف، ولا كان البغي يدفع أحدا إلى الالتجاء للغايات والأحراج، كل له حصة من حرارة الشمس، والجميع أسرة واحدة شريعتها المحبة.

ولقد خيل إلي وأنا أمشي بين الناس أنني أصبحت أطهر وأقوى مما أنا عليه الآن؛ وكان صدري يستنشق طويلا نسيم تلك السماء البليل بعد أن كان يستنشق نسيم جونا الفاسد، فأشعر بنشوة الطفل وهو يصعد رويدا رويدا في الفضاء.

وبينما كانت هذه الأحلام تهزني انتقل خاطري إلى غابة فوقع بصري على رجلين يقطعان طريقا ضيقا تعانقت من فوقه غصون الأشجار، وكان أصغرهما متقدما على رفيقه ووجهه يفيض

بالاطمئنان، ونظراته تداعب كل سنبلة تقع عليها عينه، وهو بين لحظة وأخرى يلتفت إلى زميله وعلى شفتيه ابتسامة صافية لم تكن غير ابتسامة أخ.

أما زميله فكان صامتا يرسل إليه وجهه المكفهر نظرات حارة ملؤها الحقد، وهو يتعثر كلما أسرع من خلفه كأنه يقتفي أثر فريسة فرت منه.

وعندئذ قطع فرعا من شجرة أخذ يسوي منه هراوة أخفاها تحت ثوبه، ثم اندفع وراء صديقه الذي وقف ينتظره وقد أخذ يقبله عندما اقترب منه كما يقبل الإنسان صديقه حميما طالت غيبته عنه.

وهكذا عاد إلى سيرهما وقد آذنت الشمس بالمغيب، والفتى مسرع وهو يبصر من بعيد خطا لطيفا أصفر عند سفح الجبل لم يكن غير تحية المساء ترسلها الشمس للطبيعية. أما صاحبه فظنه يتهرب منه، حتى إذا التفت إليه وعلى طرف لسانه كلمة حلوة أراد أن يسترغرضه بها كانت الهراوة على وجه ذلك المسكين فهشمته.

ولقد صادفت أول نقطة من دمه بعض الحشائش فنفضتها عنها إلى الأرض مرتاعة فامتصتها هذه وهي لا تقل ارتياعا منها؛

وقد خرج من بين أحشائها أنين مؤلم يحمل إلى السماء صوت سخطها ومقتها حيث طفح الرمل ذلك الشراب القاتل على صورة زبد خالطه دم.

وما كاد القتيل يصرخ من ألم الضربة حتى تشتت الخلائق هولا، وأخذت تهيم على وجهها في الأرض، وأقوياؤها في مفارق الطرق يصرعون الضعفاء منهم. وعندئذ أيقنت أن الكون قد بدأ فيه نذير الاضطراب والانحلال.

وهكذا استعرضت عيناي مناظر هذا الاعتداء المطرد، فكان الباشق يهوى على القبرة، وهذه على الذبابة، والذبابة على جروح القتلى؛ فلم يترك الفزع أحدا من الدودة إلى الأسد كأنما قد استحالت الخليقة إلى عقرب أخذت تعض ذنبها بفمها فغابت في ظلمة الفناء.

وعلى أثر ذلك انتابت الطبيعة هزة طويلة كسرت خط ذلك الأفق الصافي، وشوهت جمال الشفق بما اعترضه من السحب الحمراء.

وكذلك البحار أخذت تضطرب بين قصيف الأمواج وهزيم الرياح من خلال الأشجاروقد التوت سيقانها وأخذت تنفض عنها كل سنة حلة اوراقها.

- 3 -

وما كاد إلبرج ينتهي من حديثه حتى ظهر كليريان وهو يقول: لست أدري إذا كان ما سأقصه عليكم حلما أوحقيقة، لأن ما رأيت في نومي يكاد يكون حقيقة، ولأن الحقيقة من بعده تكاد تكون حلما.

رأيت كأنني في طريق يشق المسكونة على جانبيه المدن والأمم تقطعه مثلي، وهو مكسو ببلاط اسود انعقد فوقه دم كانت قدماي تنزلقان من فوق.

أما الناس فقد كان الآباء منهم يقتلون بناتهن ليكون من دمائهن قربان لله، فكانت تلك الرؤوس الفتية الجميلة تحز تحت مداهم وقد هرب لونها على أثر هذه القبلة التي كانت شفة الموت تضعها عند أعناقهن.

وفي مكان آخر كان العذارى يصن عفافهن بالانتحار جاعلات من القبور الكفن لبكور تهن.

وعلى مسافة من هذا المكان كنت أرى العشيقات تفيض أرواحهن تحت قبلات المحبين، هذه تنوح ثم تسقط جثة هامدة عند الشاطئ وعيناها تنظران إلى روحها وهي تصعد حاملة معها مهجتها، وتلك تتجرع كأس الموت على صدر رفيقها مطوقة عنقه بذراعيها تودعه الوداع الأبدي.

وكذلك كنت أرى من بين الناس من سئموا الحياة وملوها فودعوها لعل أرواحهم تذوق طعم النعيم في عالم آخر.

أينما كنت أذهب كان أثر أقدام الملوك مرسوما محفورا على

ذلك البلاط القاني. . . فمنهم من كان يمشي على دم أخيه، ومنهم من كان يسير على دم شعبه، فتترك أقدامهم من خلفها أحرفا ناطقة: هنا مر ملك!

أما القساوسة فكانوا يخفون السيوف في مطاوي أثوابهم الكهنوتية وأصواتهم تعلن الحروب باسم الإنسانية وباسم الله.

كان العالم كله ثملا بخمرة البطش، يضرب كل منهم أخاه سيف ذي حدين، والأرض عطشى تكرع من الدم ولا ترتوي.

- 4 -

وعند ذلك صاح جنوص لقد هلت تباشير الصباح، ولكن طرق آذانهم صوت بوق بعيد لم يكن غير أمر للمتفرقين من الجند بالاجتماع تحت علمهم، فنهض الثلاثة حاملين أسلحتهم ثم ابتعدوا وهم يرسلون إلى موقدهم نظرة وداع أخيرة. غير انهم لمحوا رفيقهم الباقي مقبلا وقدماه معفرتان بالتراب فاستوقفهم يقص عليهم ما رآه:

قال: إنني أجهل من أين أتيت لأني كنت أعدو عدوا وكأن الأشجار لجزعها تعدوا مثلي حتى غلب علي سلطان النوم فنمت حيث رأيت نفسي فوق تل منفرد وقد كادت قدماي تحترقان من حرارة الشمس.

وبينما أنا أثب من صخرة إلى أخرى لمحت رجلا صاعدا نحوي وعلى رأسه تاج من الشوك وعلى كتفيه معطف ثقيل والعرق يتصبب من وجهه في حمرة الدم، وكانت حرارة الشمس قد أثرت في قدمي فأخذت في الصعود حيث أنتظره تحت كل شجرة فوق التل، حتى إذا اقترب مني وجدته يحمل صليبا ففرحت إذ بيده ملكا.

ولكن جنودا كانت تجد في أثره وهم يهددونه بحرابهم، حتى إذا ما أدركوه صلبوه فوق تلك الشجرة ودموعه تسيل وعلى شفتيه ابتسامة صفراء تنم عن مبلغ ما حل به من الحزن.

هالني هذا المشهد ولكنني رأيت الرجل عظيما في موته فتأكد لي

أنه غير ملك. ولذلك أشفقت عليه وأنا أصيح بهم: اطعنوه في قلبه حتى لا يطول عذابه. وعندئذ وقفت حمامة على الصليب وأخذت تنوح ونبرات صوتها تصل إلى سمعي فتصورها لي عذراء لم تملك نفسها من البكاء وكأنها تقول:

(ما لي أرى الدم قد صبغ اللهيب والفضاء والأشجار؟ وما لساقي تغوصان من تحتي في الرمل القاني، وما لجناحي حين لمسا هذه الأغصان صبغتهما الحمرة؟

لقد صادفت في طريقي رجلا صالحا فتبعته حتى اغتسلت في المنبع خرجت وثوبي طاهر نقي ولذلك كنت أقول لريشي: قر عينا فإنك فوق كتفي هذا الرجل لن تحمل هما ولن تدنسك آثام. أما اليوم فقد أصبح نشيدي:

نوحي يا حمامة وابكي ثوبك الذي لطخه دم من اتخذت حماك بين ثدييه. أنه جاء ليصون لك بياض ثوبك ولكنه تحت حكم أولئك القساة بلل ريشك بندى جروحه.

هاأنذا أنوح على ثوبي الملطخ فأين أجد أخاك أيها المسيح ليفتح لي طرف ثوبه فأحتمي فيه؟ ومن ذا الذي يغسل بعد الآن الذي صبغه دمك؟)

وكأن المصلوب كان يستمع لنواح تلك الحمامة وريح الموت تحرك جفنيه، وسكراته تلوي شفتيه؛ غير أن نظراته اتجهت فجأة إليها كأنها توجه إليها لطيف العتاب. ثم صرخ صرخة مالت عنده رأسه إلى صدره فذعرت الحمامة وفرت، وقد اغبر وجه السماء واهتزت الأرض، ثم أخذت تبتعد حتى اختفت في ثوب الظلام.

أما أنا فأخذت أعدو وقد بزغ الفجر واستيقظت الطبيعة باسمة من خلال ضباب الصباح، وقد اختفت زوابع الليل فعاد للسماء صفاؤها، وعادت للأشجار نضرتها؛ ولكن الطريق كانت لا تزال تكسو جانبيها الأشواك، ولا تزال ساكنة في فجواتها الزواحف التي كانت تقف في طريق سيري بالأمس. نعم إن دم المسيح جرى في شرايين الأرض القديمة من غير أن تعود إليها نضرتها الأولى.

على أن البوق لا يزال يسمع صوته من بعيد فصاح جنوص في

رفاقه قائلا:

(ألم تشعروا يا أولادي بقسوة هذه المهنة؟ لقد أزعجتكم تلك الأشباح في نومكم كما أزعجتني مثلكم ساعات طويلة. إن لي الآن ثلاثين سنة لم أقضها في غير قتل بني جنسي حتى سئمت نفسي. وإنني أعرف أن هنالك أراضي واسعة في حاجة إلى سواعد ومحاريث، فهلا ترون أن نتذوق بعد ذلك طعم الخبز الذي يخرج من كدنا؟)

وعند ذلك صاحوا جميعا: نعم

ثم أخذوا يهيئون حفرة يدفنون فيها سلاحهم وبعد أن اغتسلوا في النهر اختفوا بين ثنايا الطريق.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

مقدمة.....ص3
نفسية قطة ..تيوفيل جوتييه.....ص17
النجوم...ألفونس دوديه.....ص19
هنرييت البائسة....أندريه مورا.....ص25
الباقي على قيد الحياة....بلزاك.....ص29
صديقة الطلبة.....الفريد ديمسيه.....ص39
بقعة من حبر..... رينه بازين.....ص51
عزلة .....جي دي موباسان.....ص59
الغني والفقير.....لابرويير.....ص65
أماني حسناء.....كاتول مانديز.....ص67
الاعتراف.....موريس ليفل.....ص73
الهارب من الجيش ....ألفونس دوديه.....ص79
حوار عند الغروب.....بيير لويس.....ص85
حينما كان طيبا..... هنري لفران.....ص91
الغلاف ذو الأختام الحمر.... موريس ليبلاق.....ص99
قبلة الملكة.....ج .هـ روسني.....ص105
اشترك في الجريمة .....بول بورجيه.....ص109
اليتيم..فرانسوا كوبيه.....ص119
الجنية العاشقة....إميل زولا.....ص125
انتقام الأميرال....أرنست دوويه.....ص131
الدم... إميل زولا.....ص139

obeikandl.com

obeikandl.com